الباب الثالث

الأسلوب والموضوع

نذكر فى هذا الباب وما يليه أسباب اختلاف الأساليب، ومظاهرَ هذا الاختلاف. ونعنى بالأساليب هنا هذه العبارات اللفظية التى هى المظهر لطريقتى التفكير والتصوير كما سبق ذلك. وإنما يرجع اختلاف الأساليب إلى سببين رئيسيين :—

الأول : الموضوع.

الثانى : الكاتب.

وهناك أشياء اخرى يذكرها بعض الباحثين — كاختلاف الصنعة، ومقدار الملاءمة بين اللفظ والمعنى وغير ذلك — ولكنها فى الواقع مظاهر تطبيقية لأحد هذين السببين أو لكليهما كما يتضح ذلك اثناء الكلام الآتى.

فالموضوع هو السبب الأول الذى يقوم عليه اختلاف الأساليب، ويراد بالموضوع الفن الذى يختاره الكاتب ليعبر به عما فى نفسه، علما أو ادبا. نظما او نثرا. مقالة او قصة او رسالة او خطابة.. فلكل فن منها أسلوبه الخاص الذى يلائم طبيعته.

وأما الكاتب فان اختلاف الأساليب بالنسبة له راجع الى اختلاف شخصيات الكتاب من حيث أذواقهم ومواهبهم العقلية ودرجة انفعالهم، وطبائعهم الخشنة او الرقيقة. وطريقة تفكيرهم وتصويرهم. إذ كان لكل ذلك أثره في نوع الكلمات. ولون التشابيه والاستعارات وقوة العبارات

أو رقتها،وفى نظام التفكير او اضطرابه.

ونفرد هذا الباب للكلام فى النسب الاول وهو الموضوع ، فنلاحظ أن :—

الاسلوب من حيث الموضوع
- علمى
- ادبى
  - شعر
    - حماسة
    - نسيب
    - مدح
    - رثاء ... الخ
  - نثر
    - مقالة
    - قصة
    - خطابة
    - رسالة ... الخ

ونذكر فى الفصول التالية خواص كل أسلوب. ومايميزه من سواه، بناء على اختلاف هذه الفنون . وليلاحظ أن بعض فنون النثر أدب خاص والآخر أدب عام يمكن عدّه في الاسلوب العلمى كما يمر بك.

obeikandl.com

الفصل الاول
الاسلوب العلمى والادبى

الخطوة الاولى لاختلاف الأساليب تبدأ بالفرق بين الأسلوبين العلمى والادبي. وقد رأيت فيما مضى أن الكاتب. حين يريد الكتابة فى موضوع يجب عليه أولا أن يختار الافكار التى يريد أداءها لجدتها اوقيمتها أو ملاءمتها لمقتضى الحال ثم ترتب هذه الافكار ترتيبا معقولا ليكون ذلك أدعى الى فهمها وحسن ارتباطها في ذهن القارىء وأخيراً يعبر عنها بالالفاظ اللائقة بها. فاذا ما فعل ذلك حصل على الأسلوب العلمى. وقد ذكرنا مثال ذلك قبلا ونذكر هنا مثالا آخر نستعين به علي بيان ما يمتاز به كل من النوعين. فالاسلوب العلمى كما قيل فى وصف الاهرام: «كان القصد من بناء الأهرام ايجاد مكان حصين خفى يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته. ولذلك شيدوا الهرم الاكبر وجعلوا فيه أسراباً خفية زلقة صعبة الولوج لضيقها. وانخفاض سقفها واملاسها حتى لا يتسنى لأحد الوصول الي المخدع الذى به التابوت. ومن أجل ذلك أيضا سدّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرك. لا يعرف سرّ تحريكه الا الكهنة والحراس ووضعت أمثال هذا الحجر علي مسافات متتابعة فى الاسراب المذكورة. وبهذه الطريقة بقي المدخل ومنافذ تلك الاسراب مجهولة أجيالا من الزمان. ويُعد الهرم الاكبر من عجائب الدنيا. قرر المهندسون والمؤرخون ان بناءه يشمل نحو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجر. متوسط وزن الحجر منها طنان ونصف طن. وكان يشتغل فى بناء الهرم مائة الف رجل يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة

أشهر . وقد استغرق بناؤه عشرين عاما . وجميع هذا الهرم شيد من الحجر الجيرى الصلب ماعدا المخدع الاكبر فانه من الصخر المحبّب . وكان الهرم مغطى بطبقة من الجرانيت فوقها أخرى من الحجر الجيرى المصقول ووضعُ الملاط بين الاحجار فى غاية الدقة حتى كان الناظر الي الهرم يكاد يظنه صخرة واحدة (١)»

فليس من شك ان كاتب هذه القطعة (١) قد اختار هذه الحقائق أو المعارف لأهميتها فى تاريخ الاهرام (٢) ثم رتبها هذا الترتيب الذى رأيته فعرض لسبب البناء . ولهذا الوصف الذى يطابق سر هذا البناء . ثم انتقل الي ذكر هذه الافكار التفصيلية المتصلة بالبناء (٣) واخيراً عبر عنه بهذه العبارة السهلة الكاشفة . وهذا هو الاسلوب العلمى الذى يتخذ وسيلة لنشر المعارف وتغذية العقل دون ان تطغى شخصية الكاتب فيه .

وأحياناً لا يقف الكاتب عند هذه الحقائق والمعارف ولا يجعل قصده الفذّ تغذية العقل بالافكار . وانما يعرف هذه الحقائق . ويختار أهمها وأبرزها الذى يستطيع ان يجد فيه مظهراً لجمال ظاهر او خفى او معرضا لعظة واعتبار او داعياً لتفكير وتأثير . ثم يفسر ما اختار تفسيراً خاصاً به . بما يخلع عليه من نفسه العجيبة او المتعظة . الراضية او الساخطة . ثم يحاول نقل هذا الانفعال — أو اثارة مثله — إلى نفوس القراء والسامعين ليكونوا معجبين أو مغتبطين ، راضين أو ساخطين ، وبذلك يدخل فى الأسلوب هذا العنصر الجديد الذى يصور الشعور وهو الخيال . وهنا نرى الأسلوب الأدبى كما قيل فى الاهرام : « ولما وقفت بنا الركاب فى ساحة الاهرام ،

(١) تاريخ مصر الي الفتح العثمانى . ص ١٦ و١٧

وقفنا هناك موقف الاجلال والاعظام قبالة ذلك العَلَم الذى يطاول الروابى والأعلام ، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام والبنية التى تشرف على رَضوى وشمام . وتُبلي ببقائها جدة الليالي والأيام ، وتطوى تحت ظلالها أقواما بعد أقوام ، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام ، خلقت ثياب الدهر وهى لا تزال فى ثوبها القشيب ، شابت القرون ، وأخطأ قرنها وخط المشيب . مابرحت ثابتة تناطح مواقع النجوم . وتسخر بثواقب الشهب والرجوم (١)»

موضوع النصين واحد، هو وصف الاهرام ، الا أننا رأينا فى عبارات القطعة الثانية خواصا لا نجدها فى عبارات الاولي سواء فى هذه الكلمات الجزلة الفخمة البريئة من المصطلحات العلمية . والتحديد الدقيق . وفى هذه الجمل المختارة القوية المسجوعة ، وهذه الصور المتتابعة تشابيه واستعارات فالهرم مرة جبل ، وأخرى حرب الدهر وثالثة فتاة شابة خالدة الشباب .. وأخيراً هذه الموسيقا العامة الفخمة التي هي فى الحقيقة صوت هذا الانفعال النفسي الذى ملك علي الكاتب شعوره الباطنى ففاض علي قلمه ألفاظا وعبارات هذا الاعجاب هو — هنا — ما منح الأسلوب صفته الأدبية ، وأبدى شخصية الكاتب في هذا الموقف فاذا بها تكبر الاهرام ، وتعجب بقوة الانسان . ثم تدل علي درس للأدب القديم واعتزاز بهذه الصنعة اللفظية والجزالة اللغوية والصور البيانية القديمة. وهذا الاعجاب ـ باعتباره انفعالا ـ تعجز اللغة العادية عن تصويره . لانها وضعت بأزاء الافكار لتعبر عن هذا العقل الهادىء المحدود . اما الانفعال فهو قوة تعوزه لغة خاصة به وهى

(١) حديث عيسي بن هشام : ص ٤٠٥ طبعة ثانية

التي يحتال لها الأديب فيؤلفها ـ مستعينا بالخيال ـ من تشبيه واستعارة . وكناية . وحسن تعليل ونحو ذلك لتكون ملائمة لما تؤدى من روعة وسخط وحب وما إليها .

وبالموازنة بين هذين النصين نستطيع ان نفرق بين الأسلوبين:العلمي والأدبى فيما يلي : —

(١) الأصل الأول الذى قام عليه الخلاف بين الأسلوبين هو دخول الانفعال (او العاطفة) فى الأسلوب الأدبي بجانب أهم الحقائق والافكار وأما العلمي فان المعارف العقلية هى الأساس الأول فى بنائه . وقلما تجد للانفعال أثراً واضحاً . لذلك كانت عنايته باستقصاء الافكار بقدر عناية زميله بقوة الانفعال . ولسنا نعدو الصواب اذا قلنا :ان الأسلوب العلمى لغة العقل والأدبي لغة العاطفة .

(٢) ويتبع ذلك أن يكون الغرض من الأسلوب العلمى أداء الحقائق قصد التعليم وخدمة المعرفة وإنارة العقول . ولكن الغاية فى الأسلوب الأدبى هي إثارة الانفعال فى نفوس القراء والسامعين: وذلك بعرض الحقائق رائعة جميلة كما أدركها أو تصورها الكاتب الأديب . وبهذا يجمع الأسلوب الأدبي بين الافادة والتأثير .

(٣) تمتاز العبارة الأولي بالدقة والتحديد والاستقصاء. ولكن الثانية تعنى بالتفخيم والتعميم والوقوف عند مواطن الجمال والتأثير

(٤) هذه المصطلحات العلمية . والأرقام الحسابية، والصفات الهندسية التى هي فى الأسلوب العلمى مظهر العقل المدقق . يقابلها هذه الصور الخيالية

والصنعة البديعية والكلمات الموسيقية التى هى فى الأسلوب الأدبى مظهر للانفعال العميق .

(٥) والعبارة الأولى تمتاز بالسهولة والوضوح إذ كانت صادرة عن عقل رزين فاهم كما تمتاز الثانية بالجزالة والقوة مادامت تعبر عن عاطفة قوية حية . فكانت كل منهما موسيقا صادقة لمعناها .

(٦) ومن ناحية التكرار لا ترى فى الأسلوب العلمى تكرار الفكرة وترديدها . ولكن الأسلوب الأدبى يأخذ المعني الواحد ويعرضه علينا فى عدة صور بيانية مختلفة . فالاجلال والاعظام . ثم انظر الي فكرة الضخامة تجدها مرة فى صورة عَلَم . وأخرى فى صورة هضبة . وثالثة فوق الجبال والهضاب . وكذلك فكرة الخلود تجدها مصورة عدة صور . والخلاصة أن بين الأسلوبين فرقا فى المصدر والغاية والوسيلة . ونورد لك هنا ما قال شوقى في الأهرام ليكون مثالا تطبيقيا :—

« يا أنت يا أهرام ؟ أشواهق أجرام أم شواهد إجرام ، وأوضاع معالم أم أشباح مظالم ؟ وجلائل أبنية وآثار . أم دلائل أنانية واستئثار ؟ وتمثال مُنصَّب من الجَبريّة أم مثال ضاح من العَبقرية ؟ يا كليلَ البصَر عن مواضع العِبَر ، قليلاً من البصَر بمواقع الآيات الكُبَر : قِف ناج الأحجار الدوارس . وتعلم فان الآثار مدارس . هذه الحجارة حُجور لُعِب عليها الأول ، وهذه الصفّاح صفائح ممالك ودول وذلك الركام من الرمال غبار أحداجٍ وأحمال ، من كل ركب ألمّ ثم مال . فى هذا الحرَم درج عيسى صبيّاً ومن هذا الهرم خرج موسى نبيّا . وفي هذه الهالة طلع

يوسف كالقمر وضيئا ووقعت بين يديه الكواكب جثيا وهنا جلال الخلق وثبوته ونفاذ العقل وجبروته ومطالع الفن وبيوته ومن هنا نتعلم أن حسن الثناء مرهون باحسان البناء[1] »

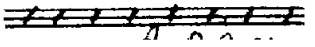

(١) أسواق الذهب . ص ٦٩ .

obeikandl.com

الفصل الثانى
فى أســـلوب الشعر

وقد يكون الأسلوب الأدبى شعرا ، فتبدو فيه مظاهر لفظية تلائم طبيعة هذا الفن الشعرى ، وإن لم تكن فى أصلها خاصة به ، بل يشاركه النثر الأدبى فيها إلى حد ما ، وبيان ذلك ، بالايجاز ، أن النثر الأدبى يمتاز من النثر العلمى بدخول عنصر العاطفة (الانفعال) فى تكوينه ، فكان لذلك آثاره الأسلوبية التى ذكرت فى الفصل الماضى . فاذا تجاوزناه إلى الشعر رأينا أن الشعر كذلك يعبر عن العاطفة والفكرة ويتخذ الخيال المصوّر ، والعبارة الموسيقية ، وسيلة إلى هذه الغاية البيانية ، وهذا طبعى إذ كان الفنان — الشعر والنثر الأدبى — أدبا ، يصور العقل والشعور كما سبق بيانه . فليس هناك إذا تضاد مطلق بين الشعر والنثر ، وإنما تقوم الصلة بينهما على اتحاد موضوعى واختلاف شكلى .

ناحية الاتحاد تظهر فى أن كلا منهما يتناول الموضوعات التى يتناولها صاحبه مما يتصل بالانسان والطبيعة . فالحماسة والعتاب والمدح . والهجاء والغزل والرثاء والوصف والاعتذار فنون للشعر كما هى فنون للنثر الأدبى... وكل منهما يتناول الأشياء بالطريقة الفنية التى تبدو فيها شخصية الأديب . وتكون معرضا لانفعالاته وأخيلته وعباراته الخاصة ومزاجه الممتاز . وقد رأيت أن العناصر التى يتألف منها النثر الأدبي تتوافر في الشعر أيضا ومعنى هذا أن طبيعة كل تتصل بالأخرى . وأنهما جميعا غـذاء العقل والشعور . وأن هذه الظواهر اللفظية التى تذكر فى أسلوب الشعر إنما تعد

فيه أقوى مظهرا . وأحسن ملاءمة .

وأما ناحية الاختلاف فتقوم على اعتبار أن النثر تغلب عليه صفة الافادة والشعر تسوده صفة التأثير . فمهما يكن النثر أدبيا فنيا فانه ينزع دائما إلى طبيعته التقريرية وأصله العقلى النافع الذى يظهر واضحا فى النثر العلمى فى حين أن الشعر مهما يكن عقليا فانه يتشبث دائما بطبيعته الرمزية وأصله الموسيقي الجميل الذى تسمعه حماسة قوية ونسيبا رقيقا ووصفا جميلا ورثاء حزينا حتى قيل : إن الفكرة اصل فى النثر والعاطفة مساعد وعكس ذلك فى الشعر حيث تتصدر العاطفة متكئة على حقيقة تسندها وتبعث فيها الصدق والقوة والبقاء. وعلى ناحية الخلاف الشكلية هذه تقوم المظاهر التى تتراءى فى أسلوب الشعر وهي ظواهر تميزه كما لا كيفاً أى أنها ترد فى الشعر بدرجة أسمى مما ترد فى النثر الأدبى . ولنذكر لأسلوب الشعر هذا المثال من قول شوقى فى الأهرام :—

قِفْ ناجِ أهرامَ الجلالِ ونادِ ... هل مِن بُناتك مجلسٌ أو نادِ
نشكو وننزعُ فيه بين عُيونهم ... إن الأبوّة مفزعُ الأولادِ
ونبثهم عبثَ الهوى بتراثهم ... من كلّ ملقٍ للهوى بقيادِ
ونُبين كيف تفرّق الاخوان في ... وقت البلاءِ تفرّق الأضدادِ
إن المغالطَ فى الحقيقةِ نفسه ... باغٍ على النفسِ الضعيفةِ عادِ

* * *

قلْ للأعاجيب الثلاث مقالةً ... من هاتفٍ بمكانهنّ وشادِ
لله أنت! فما رأيت على الصفا ... هذا الجلالَ. ولا على الأوتادِ
لكَ كالمعابدِ روعة قدسيّةٌ ... وعليكِ رُوحانيّة العبّادِ

أسّست من أحلامهم بقواعدٍ ورُفعت من أخلاقهم بعمادِ
تلك الرمالُ بجانبيك بقيـة من نعمة وسماحة ورَمادِ[1]

وقبل الكلام فى الخواص اللفظية نلاحظ أن الانفعال الذى تبعثه هذه الأبيات يتوزع بين الحزن فى القسم الاول والاعجاب فى الثاني. وذلك لأن القصيدة قيلت فى الحفاوة بأديب سوريا الأستاذ أمين الريحانى أيام الاضطرابات التى شملت بلاد الشرق العربي عقب الحرب العظمى وكانت مصر مسرحاً لكثير منها، فشكا شاعرنا ذلك فى مطلع قصيدته. ولعل الاعجاب أسبق انفعال الى النفس حين ترى الأهرام. فبدأ واضحاً فى الأبيات الأخيرة وهذا الاعجاب أحسسته من قبل عند المويلحى. وعند شوقي آخر كلمته المنثورة الواردة فى الفصل السابق. ومع ذلك فانك ترى فى النثر المذكور ميلا الى استخراج العظات والعبر والي إيراد الحقائق التاريخية. وبيان اختلاف الرأى فيما تدل عليه الأهرام من مجد ينسب الى الفراعنة أو ظلم نال المصريين. على أن هذه النماذج النثرية من النوع الذى غلا وأخذ يقرب من الشعر حتي كاد ينسى طبيعته الأولي ويعود شعرا منثوراً.

وأول ما يلقانا بعد ذلك هذه العبارات الموسيقية التى تمتاز بالوزن والقافية ورقة الكلمات أو جزالتها وتخير التراكيب وتجنب الفضول والابتذال حتى عادت العبارات أصلح للأسلوب الشعرى الجامع بين التهذيب وقوة التأثير.

وهذا القدر الذى ذكرناه يسمح لنا أن نتقدم قليلا فنذكر الخواص الآتية على أنها أشد ظهورا في الشعر وأقوى به اتصالا.

١ — الشوقيات ج ١ ص ١٢٩

(١) فالوزن أخص ميزات الشعر وأبينها فى أسلوبه[١] ويقوم على ترديد التفاعيل المؤلفة من الأسباب والأوتاد والفواصل وعن ترديد التفاعيل تنشأ الوحدة الموسيقية للشطر والبيت . وبتكرار البيت تنشأ الوحدة الموسيقية للقصيدة كلها ، فأبيات شوقي المذكورة آنفا قائمة على هذه التفعيلة — متفاعلن — فلما كررت ثلاث مرات كان الشطر . ولما كررت ستا كان البيت أو الوزن الذى يسمى فى علم العروض — بحر الكامل — والقصيدة كلها من هذا الوزن . وللشعر العربى أوزان — أو بحور — أساسية بلغ عددها ستة عشر بحراً عدا ما استحدث من أوزان مخترعة فصيحة وعامية ، منها الطويل والبسيط والمديد والوافر والهزج والسريع والخفيف . والمجتث والرمل كما هو موضح فى علم العروض . وليس معني ذلك ان النثر خال من الوزن مطلقا . فلا نزال نحس فيه وزنا أيضا وان كان أقل من وزن الشعر ظهوراً وانتظاما . فهو فى النثر مظهر لقوة العبارة وجمالها تجده فى الخطابة ذات العبارة المقسمة المفصلة . وفى الوصف الرائع ، والعتاب الرفيق ، والتقرير الواضح الجميل ، فاذا رجعت الى نثر شوقى مثلا فى الأهرام تراءى لك هذا الوزن النثري واضحاً فى عبارته المقسمة : (ماأنت ياأهرام ، أشواهق إجرام . أم شواهد إجرام ؟ وأوضاح معالم أم أشباح مظالم ؟) فتجد ـ شواهق أجرام ـ على مثال ـ شواهد إجرام ـ وكلاهما على وزن : فواعل أفعال ، وهكذا فى الباقى. واقرأ هذه الاسطر لطه حسين متمثلا معانيها بين أخذ ورد ، وجذب ودفع، واستعجال وحماسة وتحد واستفزاز ، تحس هذه التيارات النفسية واضحة متتابعة فى موسيقا

(١) راجع كتب العروض

العبارة: « والشعوبية ، ما رأيك فيهم وفيما يمكن أن يكون لهم من الأثر القوى فى انتحال الشعر والأخبار » فالكلمة الاولى تقوم وحدها مقام تفعيلة ، والاستفهام بعدها تفعيلة أخرى تمهيدية وليتها عبارة منسقة انتهت بهذا الوقف والقافية الموسيقية ، فلما بدأ بعد ذلك علت موسيقاه وعادت مقسمة تدل على عقيدة قوية ، واعتزاز واضح : أما نحن فنعتقد ان هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا [1] أخباراً وأشعاراً كثيرة وأضافوها إلي الجاهليين والاسلاميين».

ويظهر أن الوزن ظاهرة طبعية للعبارة مادامت تؤدى معنى انفعاليا ، فقد ثبت فى علم النفس أن الانسان حين يملكه انفعال تبدو عليه ظاهرات جثمانية عمليه كاضطراب النبض ، وضعف الحركة أو قوتها ، وسرعة التنفس أو بطئه ، وحركة الأيدى قبضا وبسطا ، وهذه نفسها دليل على ما فى النفس من قوة قوية طارئة ، فاللغة التى تصور هـذا الانفعال لابد أن تكون موزونة . ذات مظاهر لفظية متباينة لتلائم معناها وتكون صداه الصحيح . وسيأتى تفصيل ذلك فى الفصل الآتى .

(٢) والقافية كذلك ظاهرة شعرية تصور المقطع الذي تنتهى به أبيات القصيدة ، ويبقي وزنه مرددا آخر كل بيت ليحفظ لها وحدتها أو نغمتها الأخيرة . وقد غلبت على الشعر العربى القديم وحدة القافية والتزامها فى جميع الأبيات كما غلبت عليه وحدة الوزن العروضى . وهذه قصيدة شوقى السابقة ، جميعها من بحر الكامل . وقافيتها دالية لم يشذ عن ذلك بيت ولا مقطع فى آخره . ولاشك أن الرّويّ أهم حروف القافية لتكراره

(١) فى الادب الجاهلى : ص ١٦٦ طبعة ثالثة .

بذاته مع حركته الخاصة . على أن القافية تكون فى النثر أيضا وإن لم تكن لازمة ، وذلك فى الكلام المسجوع حيث تتوارد الفواصل على حرف واحد ، مع الاعتدال فى مقاطع الكلام ، كما قال شوقى فى الجندى المجهول : « ذلك النُّفل فى الرَّمم ، صار نارا على علم ، جمع ضحايا الأمم ، كما جمع الكتابةَ القلم . أو الكتيبة العلم [1] » على أننا لو فرضنا تحلُّلَ الشعر من وحدة القافية فى القصيدة وتركَ النثر حلية السجع ، فلا زال هناك حسن الانتهاء آخر البيت أو الفقرة وفيه يجب أن تتوافر نغمة ملائمة قد تتحقق بحروف الوصل أو الخروج أو الردف التى تجعل الوقف لينا رشيقا كقول الشاعر :-

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لاتنفعُ

فالوصل هو هذه المواو المولدة عن إشباع حركة العين فى (تنفعُ) وهى علامة الراحة وحسن الانتهاء . ومن ذلك ما ورد فى آخر رسالة للجاحظ كتبها إلى قُليب المغربى يعاتبه : « والله يا قُليب لولا أن كبدى فى هواك مقروحة ، وروحى بك مجروحة . لساجلتك هذه القطيعة ، وما دَدتك حبلَ المصارمة ، وأرجو الله تعالى أن يُديل صبرى من جفائك فيردك إلى مودتى وأنف القِلا راغم فقد طال العهد بالاجتماع ، حتى كدنا نتناكر عند اللقاء . »

(٣) كذلك كلمات الشعر يجب أن تكون منتقاة ، غير مبتذلة ، تدل بجرسها ومعناها على ما تصوّر من أصوات ، وألوان ، أو نزعات نفسية ، وبذلك يحاول الشعر ان يكتسب صفة الموسيقا والرسم وبخاصة حين تحكى الكلمات صوت الطبيعة أو الحركة ، أو تكون ذات صفة حسية .

---

١ اسواق الذهب ص ٢٠

فقد رأيت فى وصف الأهرام كلمات الروعة، والجلال، والقدسية، والروحانية وإذا قرأت لابن المعتز قوله يصف سحابة :ـ

وسارية لا تمل البكا ... جرى دمعها فى خدود الثرى
سرت تقدح الصبح فى ليلها ... ببرق كهندية تنتضى
فلما دنت جلجلت فى السماء ... رعداء أجش كجرس الرحا

رأيت كلمات : الخدود وتقدح وبرق وهندية وجلجلت وأجش وجرس الرحا ، التى تعد كلمات لونية وصوتية صادقة فى نقل ما تعرض له من أوصاف . والنثر الأدبى يحرص على تحقيق هذه الخاصة وإن لم يبلغ فيها مبلغ الشعر لحاجته إلى التقرير النسبى الذى يسدل عليه صفة عقلية تحد من موسيقاه وتصويره . وقد لاحظ ابن الأثير (١) أن من الألفاظ ما يحسن استعماله فى الشعر دون النثر ومما مثل به لذلك كلمة مُشمَخِرّ الواردة فى بيت للبحترى يصف إيوان كسرى :ـ

مُشمخِرّ تعلوله شُرُفات ... رُفعت فى رءوس رَضوَى وقُدس

ولعل السر فى ذلك أن مثل هذا اللفظ وجد فى موسيقا الشعر أولا وفى عدم تقيده بالصفة التقريرية العقلية الواضحة ثانيا . ما جعله ملائما لاسلوب الشعر دون النثر .

(٤) أما الصور الخيالية كالتشبيه والمجاز والكناية والمطابقة وحسن التعليل — فانها تكون فى الشعر أشد قوة وأروع جمالا ، وهى فى النثر أميل الى الايضاح والايجاز ثم التأثير أيضا . لذلك كانت الكناية والاستعارة أكثر وروداً فى النظم وكان التشبيه أكثر دوراناً في النثر

(١) المثل السائر ص ٦٤ المطبعة البهية

وهذا الفرق يقوم كما ذكر علي أن وظيفة الشعر التأثير وبعث الانفعال أولا ووظيفة النثر الافادة وتغذية العقل أولا . فاحتاج الشعر الى هذه الصور الخيالية القوية لتكون وسيلته الصالحة . واعتمد عليها النثر حين تفيده في الدقة والوضوح . فاذا غلا النثر وسلك سبيل الشعر في استخدام الأنواع البيانية هذه ، كان ذلك منه بعداً عن طبيعته الأولى ونزوعا الى طبيعة الشعر قال البحتري : —

إذا ما نسبتَ الحادثاتِ وجدتَها بناتِ زمانٍ أرصدتْ لبنيهِ
متى أرت الدنيا نباهة خاملٍ فلا ترتقبْ إلا خمولَ نبيهِ

فالاستعارة في البيت الأول قائمة على أن الزمان يبتلى الناس بحوادثه وغايتها التشنيع والبرم بهذه الحادثات لا التفسير والايضاح ، حتى إذا قرأت البيت الثاني رأيت في هذه المقابلة مثلا من آثار هذا البلاء وهو أثر سيء شنيع ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاء ماحوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها . فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها . » فهذا التمثيل البياني يراد به التوضيح والافهام . فالرسول في إخراج الناس من ظلمات يتهافتون عليها إلى الهدى والنور كأنه ينزع فراشا ودوابا من نار تتهالك عليها . هذا هو الأصل في كل من النظم والنثر .

(٥) تراكيب الشعر أكثر حرية في تأليف كلماتها من حيث التقديم والتأخير . وذلك ناشيء عن قصد التوفيق بين وزن الشعر وحركات العبارة فتبدو الجمل في نظام غير طبعي . على أن شيئا من ذلك قد يكون

لغرض معنوي، أو فني كالقصر أو الفاصل . أما النثر فلا يخرج نظم الكلام فيه عن الأصل إلا لباعث معنوي ومن ذلك فى الشعر ما قال المتنبي :ـ

وشيخٌ فى الشبابِ وليس شيخا يُسمى كلُّ من بلغ المشيبا

فقصل بين ليس واسمها (كل) وقدم المعمول (شيخا) على عامله (يسمى) ليستقيم له الوزن ومن ذلك قوله : —

وكان أطيبَ من سيفي مضاجعةً أشباهُ رونقه الغيدُ الأمالِيدُ

فأخّر اسم كان (أشباه) وأضافه الى المتصل بضمير السيف ليعود هذا على متقدم فى الذكر . ومن ذلك فى النثر قول زياد : « حرامٌ على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما واحراقاً ـ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا » ومما التقديم فيه للالزام والارهاب أو للقصر والتوكيد .

(٦) وفى محاولة التوفيق بين الأوزان الشعرية والتراكيب اللغوية، يضطر الشاعر إلى إحدى اثنتين : إما أن يجور على الأوزان فتنشأ العلل والزحاف ، وإما أن يجور على الكلمات فتنشأ الضرورات ، أو الضرائر التى تجوز للشاعر دون الناثر .[1] ومعنى ذلك أن أسلوب الشعر يمتاز بجواز قصر الممدود ، ومد المقصور ، وتحريك الساكن ، وعكسه . ومنع المصروف وصرف الممنوع . ومجاوزة بعض القوانين النحوية . كل ذلك قصد الملاءمة بين موسيقا الوزن وحركات العبارات. فنحو قول الشاعر:ـ

سيروا معًا إنما ميعادكم يومَ الثلاثا ببطن الوادي

(١) راجع الضرائر للآلوسي والعمدة ج ٢ ص ٢٠٨

تغير فيه وزن البسيط فالعروض مجزوءة . [١] والضرب مقطوع [٢] هذا من جهة . ومن جهة ثانية حذفت همزة (الثلاثاء) كما ترى لتصحيح الوزن . وفى قول امرىء القيس :—

ويومَ دخلتُ الخـدرَ خدرَ عُنَيزَةٍ
فقالتْ : لكَ الويْلاتُ إنك مرجلي

فصرف كلمة — عنيزة — لضرورة الوزن .

ومع ذلك فيحسن بالشاعر أن يُنزّه شعره عن الضرورات . وكثرة الفصل والتقديم والتأخير بدون داع أدبى حتى لا يشوّه شعره أو يتورط فى التعقيد . يقول أبو هلال العسكرى [٣] : « والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته وسهولته واستوائه وقلت ضروراته . ومن ذلك قول بعض المحدثين :—

وقُوفُكَ تحت ظلال السيو ف أقرّ الخلافة فى دارها
كأنّك مُطّلعٌ فى القلوب إذا ما تناجت بأسرارها
فكرّاتُ طرفِك مردودة إليكَ بغامض اخبارها
وفى راحتيكَ الردَى والندى وكلتاهما طوعُ ممتارها
وأقضيةُ الله محتومة وأنتَ مُنفّذ اقدارها . »

ولأبى العتاهية والبهاء زهير والبحترى وغيرهم أمثلة لهذه الظاهرة المحمودة .

(٧) ولما كان الشعر ادخل فى باب الفن وأشد تمثيلا له كان أميل

---

(١) الجزء حذف التفعيلة الاخيرة من الشطر الاول (٢) تحويل فاعلن الى فاعل
(٣) الصناعتان : ص ٢٥٧

إلى الايجاز والقصد فى تأليف العبارات ، فمن حقه الاكتفاء بالعناصر الرئيسية كالمسند والمسند إليه دون التزام الفضلة ، وكثرة الروابط مثل حروف العطف ، والجر ، والضمائر . كذلك يكتفي الشعر بالمقدمات دون النتائج ، وعكس ذلك أيضا ، مائلا بذلك إلى الرمز والاشارة واللمحة دون التصريح والتفسير . ولنذكر مثالا لذلك قول المتنبي :—

ومرادُ النفوسِ أصغرُ من أن تَتعادَى فيه وأن تَتفانى
غيرَ أن الفتى يُلاقِي المنايا كالحةً ولا يُلاقى الهوانا

فان نثر هذين البيتين يبين لنا العبارات المحذوفة إيجازا واكتفاء . يقول : إن ما تبغيه النفوس (من طعام وشراب ولباس) أصغر من أن يحتاج الناس فى (الحصول عليه) إلي التعادي والتفانى . ولكن الناس مع ذلك لا يكفون عن التحارب والتباغض فما سر ذلك إذا ؟ السر هو الحرص على الحرية والكرامة والعزة التى (يفضل الانسان الموت فى سبيلها عن أن يلقي المذلة والهوان) مسلما راضيا . من ذلك ترى مقدار ما بين الشعر والنثر من الفرق فى العناية بعناصر العبارة : اكتفاء وايجاز فى الأول ، وتصريح واكتمال فى الثانى .

(٨) لأسلوب الشعر بعد ذلك صفة خاصة هى خلاصة هذه الميزات المذكورة مع طبع الشاعر وذوقه ، فهو الذي يطبع العبارة بطابع القوة أو الجمال ، ويكسبه روح الشاعر وشخصيته الفنية الممتازة ، وفيها يحار النقاد ويسمونها مرة عبقرية الشاعر ، وأخرى شيئا يدرك ولا يمكن تعليله وتفسيره تدركه فى قوة المتنبي ، وجمال البحترى ، ورقة جرير فى النسيب ، وسهولة أبى العتاهية والبهاء زهير ، ويكفى هنا أن أشير إلي مثل قول جرير :—

بانَ الخليطُ ولو طُووعتُ ما بانا ... وقطّعوا من حبال الوصل أقرانا

حتى المنازلَ إذ لا نبتغي بدلاً ... بالدار داراً ولا الجيران جيرانا

لا بارَكَ اللهُ في الدنيا إذا انقطعت ... أسبابُ دنياكِ من أسباب دنيانا

إن العيونَ التي في طرفها حورٌ ... قتلنَنا ثم لم يحيينَ قتلانا

يَصرَعْنَ ذا اللب حتى لا حراكَ به ... وهنّ أضعفُ خلقِ اللهِ إنسانا (١)

(١) ص ٥٩٣ ديوان جرير مطبعة الصاوى

obeikandl.com

الفصل الثالث
فى اختلاف أساليب الشعر

— ١ —

وهنا نشير الى مسألة أخرى هى اختلاف أساليب الشعر باختلاف الموضوعات التى يتناولها ، إذ كان من الملاحظ أن أسلوب الحماسة أو الفخر قوى جليل ، وأن أسلوب العتاب أو النسيب رقيق جميل ، وأسلوب الوصف الطبعى رائع جذاب ، فما سبب هذا الاختلاف ، وما مظاهره اللفظية؟

من المقرر الثابت أن الشعر فن جميل ينشأ عن الناحية الوجدانية للنفس الانسانية فيعبر بلغته الكلامية الموسيقية عن أنواع الانفعال والعواطف. والانفعالُ قوة وجدانية تسيطر على النفس وتصحبها تغييرات جثمانية ظاهرة وأخرى عقلية باطنة ، واضطرابات عصبية من الممكن أن يلحظها الانسان فى نفسه وفى غيره . فى أحوال الغضب والرضا . والفرح والحزن . والتفاؤل والتشاؤم . والفزع والهدوء على تفاوت فى الكم والكيف . وفى طبيعة الانفعال لذة وألما . بساطة وتركيباً الى غير ذلك . لاحظ الخائف وما يحل به من انقباض عام ، وضيق نفسى ، وجفاف فى الحلق ، وخفقة فى النفس ، وارتعاد في العضلات ، ثم ضيق دائرة الشعور وقصره على ما يتصل بموضوع الانفعال ، وقد يبلغ به الأمر الي نسيان عهوده ومواثيقه ، واكتسابه شخصية أخرى ، فالانفعال يؤثر فى الجسم والعقل والسلوك ، سواء أكان خوفا أم غضبا ، أم حبا ، أم بغضا ، أم إعجابا . . ولكن بدرجات مختلفة كما أسلفنا .

ولعلماء النفس[1] كلام كثير في تفسير الانفعالات ،وصلتها بالغرائز ، وفى أقسامها المختلفة القائمة على أسس متباينة ، فهى مثلا لذيذة أو مؤلمة ، بسيطة أو مركبة ،قوية أو ضعيفة . ولعل أهم ما يعنينا هنا أن هذه الانفعالات التي هى موضوع الشعر ـ تختلف في طبيعتها واتجاهها ، قوة وضعفا ، إيجابا وسلباً ، إقداما واحجاما ، ويتبع ذلك اختلاف مظاهرها فى جسم الانسان وفى نفسه، فالغضب أقوى من الحزن، وهذا أقوى من الأسف. والفرح أقوى من الاعجاب. كل ذلك غالبي. لهذا يصحب الغضب مثلا نشاط عام فى القول والعمل يتجه نحو العدو ، كما أن الفرح تصحبه حركات طروبة بهيجة ، وعبارات مؤثرة ، وغناء ورقص أحيانا . والحزن واليأس كثيرا ما يصحبهما فتور وبكاء،وهذا ينتهى بنا الى تقسيم الانفعالات الأدبية قسمين رئيسيين: قسم ايجابي أو إقدامى ، وقسم سلبي أو إحجامى ، فالأول قوة دافعة كالغضب والقلق،والثانى ضعيف متخلف كالحزن والاسف والخوف فى بعض الأحيان .

— ٢ —

وحينما تعرض اللغة لتصوير هذه الانفعالات تصويراً صادقاً يلائم طبيعتها كانت هذه اللغة موزونة حتما لتكون عبارتها صدى لقوى العواطف والانفعالات التي تؤديها ، فهى ذات موسيقا قوية أو ضعيفة ، خشنة أو رقيقة ناعمة ، منسجمة أو مختلفة ، كل تلك ظواهر طبيعية لما يحويه الأسلوب من معنى هو هنا قوة الوجدان أو موسيقاه . ولولا أن عبارات اللغة كلمات موضوعة لمعان فكرية محدودة ، لكانت العبارات غناء وألحاناً كما كانت قديما ، أو كانت موسيقا مجلجلة ، أو جميلة مؤثرة أو متنوعة . ومع ذلك —

(١) راجع في كتاب علم النفس ج ٣

أو على الرغم من ذلك — نجد العبارات الأدبية تحتال دائما — مع تأثرها بالمعاني العقلية — لتكون صورة لموسيقا النفس إلى درجة محمودة : فالكلمات رشيقة ذات جرس خاص ، تحكي صوت الطبيعة التي تصفها ، والألوان التي تصورها ، والجمل موجزة مقسمة حرة في تكوين عناصرها ، تخضع لشيئين: الصحة النحوية ، والموسيقا الأدبية ، وعن ذلك نشأت البحور في الشعر ، والقافية فيه وفي النثر . . وعن ذلك ينشأ الأسلوب المثالي الذي يحتصر في هذه الكلمة القديمة : ائتلاف اللفظ والمعنى .

والنتيجة الطبيعية لكل ماسبق من (١) اختلاف درجة الانفعال في القوة (٢) وصدق التعبير عنها باللغة ، أن الأسلوب نفسه يختلف باختلاف معناه الوجداني ، فالعبارة التي تصور الغضب أو السخط أقوى من تلك التي تعبر عن الحزن أو الخوف أو الوله أو الخذلان . ومعنى هذا أن أسلوب الحماسة أو الوعيد أقوي من أسلوب النسيب أو الاعتذار أو الرثاء . ونجد وصف الطبيعة أو المدح أو الخمريات أو الحكمة متوسطا ، كما أن الوصف العام الذي يتناول كل شيء مختلف حسبما يتناول من وقائع حربية أو أصوات طبيعية أو حوادث هامة فهو صادق على كل هذه الفنون . . . هذا هو القانون العام الذي تخضع له الأساليب الأدبية عامة ، وأساليب الشعر خاصه . ولنسرع فنذكر هنا مثالا يوضح ماذكر هنا ، قال بشار بن بُرْد مفتخراً :—

إذا ما غضبنا غضبةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيِّداً من قبيلةٍ ذُرا منبر صلّي علينا وسلّما
وإنا لقومٌ ما تزال جيادنا تُسَاور مَلَكا أو تُناهب مغنما

فأسمعك هذا الصخب العالي الذي يصور الاعتزاز بالقبيل كما يصوّر

الصنف والتحفز ، ويبعث الرهبة فى النفوس ، ذلك هو مافى نفس الشاعر من انفعال قد طبع العبارة بطابعه أو ـ على الأصح ـ خلقها وألفها على وفقه ومثاله فكانت صداه الصادق ، وثوبه اللائق ، ولغته الطبعية الجميلة وبشار نفسه هو القائل ينسب بمن تدعى (عبدة) :—

لم يطلْ ليلى ولكنْ لم أنمْ ... ونفى عنى الكرَى طيفٌ ألمّ
وإذا قلتُ لها جودى لنا ... خرَجتْ بالصمت عن لا ونعمْ
رفّهى يا عبد عنى واعلمي ... أننى يا عبد من لحم ودمْ
إن فى بردَىّ جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدمْ

فتحس هنا نفسا متألمة ذليلة تترضى أخرى أقوى منها وأشد ، فلانَ الأسلوب لذلك ورق . وكأنك ترهب بشاراً وتفر منه أولا ، ثم ترق له وتعطف عليه ثانياً وهو القائل :—

هل تعلمينَ وراء الحبّ منزلةً ... تدنى إليك فان الحبَّ أقصانى

يقول ابن الأثير : « الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ؛ فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد، وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك . »[1] وربما كانت الدقة العلمية تقتضى أن يعكس الوضع فيقول : إن مواقف الحروب تنتج أسلوباً ذا ألفاظ جزلة ، والأشواق تنشىء أسلوباً ذا ألفاظ عذبه رقيقة . وللقاضى الجرجانى كلام فى هذا المعنى تجده فى مقدمة الوساطة[2] ومع ذلك فهناك

(١) المثل السائر ص ٦٥ (٢) ص ٢٩ مطبعة صبيح

أمور يحسن أن نسرع فنلاحظها هنا : —

الأول أن الفن الشعرى الواحد يختلف أسلوبه باختلاف معانيه وأنواعه فالنسيب الوصفي يخالف الشاكي الحزين أو الثائر ، وكلاهما يختلف من القصص ونحو ذلك يقال فى المديح ، والحماسة ، والهجاء كما يأتى بيانه .

الثاني أن لشخصية الشاعر تأثيرا قويا فى لون الأسلوب فتضيف اليه مزايا خاصة فوق هذه المزايا الموضوعية العامة . فرقة النسيب أو العتاب قد تتوارى خلف قوة الشخصية وجفائها كما قد تلحظ ذلك عند المتنبى، على أن تفصيل ذلك يلقاك فى الباب التالي .

الثالث أن هذا الاختلاف العام الذى نشعر به فى الأساليب يبدو في الكلمات ، والصور ، والتراكيب ، والعبارات مع طيف موسيقى عام ، هو فى الأصل من عبقرية الشاعر وموسيقا نفسه الشاعرة ، وستجد مثلا لذلك فيما يلي .

— ٣ —

علينا بعد ذلك أن نتبين هذه الصلة بين العواطف الانسانية والفنون الغنائية للشعر ، فأى عاطفة تنتج الحماسة ، وأيها تنتج العتاب ، وأيها تنتج الرثاء ، وما القاعدة التى يقوم عليها تقسيم الشعر الغنائى الي فنونه المختلفة ، وكيف تختلف أساليبه لذلك ؟

نستطيع مثلا ، ان نقول : الحماسة ثمرة الغضب أو الطموح ، والعتاب ظاهرة المودة والابقاء ، والرثاء نتيجة الحزن والوفاء والنسيب ينشأ عن المحبة والغزل ، والمديح ينشأ عن الاعجاب والاحترام وهكذا نستطيع رد كل فن

إلى عاطفة ما ، ولكن ذلك عامٌ غير عميق ، إذ ليست هناك حدود واضحة بين فنون الشعر ولا بين العواطف والانفعالات فكثيرا ما تتداخل وتمتزج بعضها ببعض ، فلا يخلو الغضب من الحزن ، ولا يسلم النسيب من الشكوي ولا المديح من الوصف .. لذلك كان من العسير أن نظفر بقاعدة علمية دقيقة لتقسيم مظاهر الوجدان أو لتقسيم الشعر إلى فنونه المختلفة ، وهذا هو سبب اضطراب النقاد القدماء والمحدثين فى ذكر أبواب الشعر العربى وحصر أقسامه . تجد ذلك فى مثل نقد الشعر لقدامة ، وديوان الحماسة لأبي تمام ، والعمدة لابن رشيق ، ومختارات البارودي ، وغيرها . ويمكن رد مذاهبهم فى التقسيم الي أصلين :—

الأول : أن يذكروا الانفعالات ثم ماتنتجه من فنون كقولهم قواعد الشعر أربعة : الرغبة وتنتج المدح والشكر ، والرهبة وتنتج الاعتذار والاستعطاف والطرب وينتج الشوق ورقة النسيب،والغضب وينتج الهجاء والتوعد والعتاب .

الثانى : أن يذكروا الفنون نفسها ، ملاحظين ما تثيره من انفعالات فى نفوس السامعين ، فقالوا : الشعر نسيب ، ومدح ، وهجاء ، وفخر ، ووصف إلي غير ذلك . وأما حديثهم عن الأسلوب فكان مقتضبا غير قائم على أصول نفسية عميقة ولا منظمة .

وليس هناك تضاد بين الأصلين فى حقيقة الأمر ، فعاطفة الشاعر القوية تثير مثلها فى نفوس القراء والسامعين بوساطة الأسلوب، لذلك ليس ما يمنع أن نساير القدماء فى مذهبهم الأول ، ونذكر هنا بعض الانفعالات

وما يلابسها من فنون :—

فالغضب — او السخط — ينتج الحماسة، والتهديد، والشكوى، والهجاء

والاعجاب ينتج المديح ، والوصف الجميل .

والحب ينتج النسيب ، والمديح والشكران .

والازدراء — او البغض — ينتج الهجاء .

والحزن ينشىء الرثاء والعتاب .

والطرب ينشىء الفخر والخمريات .

ومطلق الانفعال ينتج الوصف العام أو أى فن من الفنون ويمكننا أن نقول بوجه عام : إن هناك أسلوبا قويا كالحماسة، وأسلوبا رقيقا كالنسيب والعتاب وأسلوبا وسطا كالمديح والهجاء ، ورابعا مختلفا كالوصف .

— ٤ —

ولنتقدم قليلا فنذكر بعض هذه الفنون مشيرين إلى خواصها الأسلوبية .

أولا - الحماسة

الحماسة من حمس بمعنى اشتد وقوى ، وفن الحماسة في الشعر هو فن القوة أو فن الأسلوب القوى الشديد ، ولسنا بحاجة لنعيد هنا ما أسبقنا من أن هذه القوة مصدرها الأول قوة العاطفة او الانفعال النفسى الشديد . وإذا نظرنا فى حماسة أبى تمام رأينا هذا الفن عنده عريضا يتناول ، حقا ، كل مظاهر القوة فى الحياة ، حربية ، وخلقية ، واجتماعية وغزلية ، وكل نزعة قوية إيجابية تمثل السمو ، والعزة الفردية والقبلية من ذلك وصف المعارك وأدواتها وآثارها والحث على القتال والجرأة على الموت ، والفخر بالنصر ، والاعتذار عن مقاتلة الأقارب ، والتأسى للقتلى ، والصبر على الشدائد

وهجاء الجبان ومدح العصبية والعفة ، وهجر المواطن الذليلة ، ونفي الضيم ؛ والخلوص إلى الحبيب وركوب الصعاب في سبيله .. كل ذلك ونحوه حشده أبو تمام في الباب الأول من مختاراته وبه سمى الديوان جميعه .

وطبيعي أن يكون أسلوب الحماسة قويا كذلك . فالكلمات قوية الجرس . ايجابية المعني ، هي رماح وسيوف ، وطعن وضرب ، وقتل وأسر وانتصار ودماء ، واشلاء ووقائع ، والصور تتخذ عناصرها — ألوانها وأجزاءها وحركاتها — من الدماء الجارية ، والسيوف اللامعة ، والرماح المشتجرة ، والجيوش الكثيفة لقطع الليل . والجمل جزلة ، موجزة ، ضخمة والعبارة على العموم تحكي موسيقا النفس العالية الايجابية . ولا يتسع المقام هنا لايراد مثل لهذه المعاني الحماسية كلها ولا بعضها وهي شائعة في كتب المختارات ودواوين الشعراء . وقد مر مثال من قول بشار ، وهذا أبو العول الطهوي[1] يقول :—

فَدت نفسي وما ملكت يميني ... فوارس صدّقوا فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا ... إذا دارت رحى الحرب الزبون[2]
ولا يجزون من حسن بسيء ... ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلي بسالتهم وان هم ... صلوا بالحرب حيناً بعد حين
هم منعوا حمى الوقبي بضرب ... يؤلف بين أشتات المنون[3]
فنكب عنهم درء الاعادي ... وداووا بالجنون من الجنون[4]

---

١ — ديوان الحماسة لابي تمام ، ج ١ ، ص ١٦ ، طبعة صبيح . ٢ — الزبون : الناقة تزين حالبها اى تدفعه بشدة شبه بها الحرب لانها تدفع الرجال لشدة هولها ٣ — الوقبي ماء لبني مازن منعوا حماه ان يطأه أحد . اشتات الموت صنوفه المختلفة بالضرب والطعن ٤ — نكسب حول الدرء الدفع واعوجاج الاعداء وخلافهم ومعنى الشطر الثاني أنهم دفعوا الشر بالشر

ولا يرعون أكناف الهُوَينى اذا حلوا ولا أرض الهُدون[1]

فقد جمع فى أبياته بين الفخر والوصف ، والقصص ، ولكنها جميعاً تنتهى الي القوة والبسالة فى وزن طروب مرقص ، وعبارات جزلة ملائمة

ومن الحماسة قطع تدعى المنصفات يعرف فيها للعدو قوته وصبره أو ظفره كقول زُفَر بن الحارث الكلابى القيسى فى واقعة مَرْج راهط المشهورة — وكان الشاعر مع الضحاك بن قيس وقومه يحاربون مروان بين الحكم الاموي ومعه بنو تغلب وفيها انتصر مروان : —

وكُنا حسِبنا كل بيضاء شحمةً ليالىَ لاقينا جُذام وحِميرا[2]

فلما قَرعنا النبعَ بالنبع بعضَه ببعض أبت عيدانُه أن تكسّرا[3]

ولمّا لقينا عُصبة تغلبيّةً يقودون جرْداً للمنية ضُمّرا[4]

سقيناهُمُ كأساً سقَونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا[5]

هذه الأبيات ، على إنصافها ، تخيل إليكَ اصطدامَ القسيّ والرماح وملاقاةَ الفرسان والأقران ، وتساقى المنون ، والثبات فى مواطن الهلاك كأنك تسمع إلى قعقعه السلاح وتشهد مطاردة المقاتلين ، ومصارع المقتولين ذلك لجزالة الأسلوب . وحسن تصويره ما وراءه من عواطف وأفكار فكان عبارات قوية لموضوع قوى.

ولبحور الشعر وأوزانه أثر فى الأداء وفى قوة الأسلوب وموسيقا

---

١ — الاكناف النواحى جمع كنف . والهوينى الدعة تصغير الهونى مؤنث الاهون . والهدون السكون والصلح . يريد انهم لعزهم لا يرعون النواحى التى اباحتها المسالمة بل الحميّة

٢ — حسبنا ظننا . وقوله : كل بيضاء شحمة مثل مشهور : اكل بيضاء شحمة . اى كنا ظننا أعداءنا ضعافا كغيرهم . جذام قبيلة ومعد بن عدنان . حمير قبيلة يمنية مشهورة

٣ — النبع شجر صلب تتخذ منه القسى والسهام ٤ — الجرد الخيل لا رجالة فيها . ضمر قليلة اللحم ٥ — الكأس هنا الموت وأسبابه فكلا الجيشين أبلى في حرب الآخر . وفى البيت اعتراف للعدو بالصبر على مكاره الموت

العبارة فقد لوحظ ، مثلا ، أن الطويل[١] يتسع للفخر والحماسة ومنه القطعة الثانية وقصيدة السموءل المشهورة :—

إذا المرء لم يدنَس من اللؤم عِرضُه فكل رداء يرتديه جميلُ

وأن الوافر[٢] ألين البحور يشتدّ إذا شددته ويرق إذا رققته، وأكثر ما يجود به النظم فى الفخر ومنه القطعة الأولي[٣] وقصيدة عمرو بن كلثوم التى يقول فيها :—

ملأنَا البرّ حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفينا

ويمكنك أن تقيس على الحماسة سائر الفنون القوية التى لم يتسع المجال هنا للخوض فيها وتمثيلها ، كالوعيد ، والسخط ، والطموح وما إليها .

ثانيا - النسيب

ويسمى التشبيب والتغزل . وهو الفن الذى يتناول الحب الانسانى وما يتصل به ، وقد يسمى الغزل . والغزل مصدر من معانيه الضعف فى السعى وإلف النساء ، والتخلق بما يوافقهن من شمائل حلوة، وكلام مستعذب ومستغرب . والتعبير عن ذلك يسمى النسيب[٤] ومهما يكن فالنسيب أو الغزل فن رقيق لين، ظريف ، يصور عاطفة اجتماعية طبيعية تنحل إلي شعور بالنقص ورغبة فى إكماله ، والتلطف فى ذلك إلى أبعد غاية . لذلك كان الشاعر فيه ذليلا إذا طلب ، شاكيا إذا حُرم ، ثابتا لا ييأس مأخوذا بمن يهوى يكاد يفني فيه ، والشاعر إما أن يصف المرأة وما يتعلق بها معجباً متشبباً ، وإما

---

١ — وزن فعولن مفاعيلن أربع مرات ٢ — وزن مفاعلتن ست مرات ٣ — راجع مقدمة الاليذة ص ٨٩ . ٤ — راجع نقد الشعر لقدامة ص ٤٢ والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٩٣

أن يصف نفسه شاكياً حرقه الجوى وتباريح الهجر . وآلام الدلال والحرمان ، وإما أن يصف نفسه والمرأة معاً وما قد يحدث بينهما عفّ اللسان أو مُسفاً مرذولا . فالأول وصف ، والثانى شكوي ، والثالث قصص . وإذا كانت المرأة هي الشاعرة النزلة فالأصل أنها تعشق فى الرجل جماله وفضائله ، ومواهبه القوية السامية ويظهر أن قلة الغزل الصادر عن المرأة فى الشعر العربى راجعة الى خجلها قديما فكتمت حبها فى نفسها حتى مات معها والي غرورها حديثا فلا زالت ترجوأن تكون معبودة مدللة والى قلة الشواعر وضعفهن فى الانتاج الأدبى .

وعلى أية حال فأسلوب الغزل يمتاز علي العموم بالرقة واللين والسهولة فى غير ابتذال مادام عبارة لهذه العاطفة الرقيقة ، ولن تخرجه الشكوى أو الثورة عن رقته وعذوبته لأن مصدره الأول إلف النساء ، والتعلق بهن ، وخضوع النفس لداعى المحبة والغرام . فالكلمات رقيقة ، خفيفة ، عذبة تحكى نوازع نفسية رقيقة ، كالشوق ، والدلال ، والفتنة ، والهيام . أو حادة مقبولة كالصد والجوى ، والسهاد لأن هذه الألفاظ وضعت فى الأصل مشربة هذه المعانى . والصور كذلك مشتقة من الشمس المشرقة ، والبدر السافر ، والأزهار الناضرة ، والبلابل الغريدة ، أو من الهجر القاتل ، والنار المضطرمة ، والحرقة الممضة ، أو من اللهو الحلو والعبث السخيف . والجمل سهلة بسيطة ، لا تعقيد ، ولا إغراب ، وبخاصة فى هذا الغزل الصادق الذي يصدر عن القلب فلا يعوزه صنعة ولا يتوارى خلف التراكيب ، وعبارة النسيب تتمثل فى الموسيقا الجميلة . يقول القاضي الجرجانى : « وترى رقة

الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك . فان اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع إلى الغزل فقد جمعت لك الرقة من أطرافها . » (١) يقول العباس بن الأحنف :—

وانى ليرضينى قليلُ نوالكم ... وإن كنتُ لا أرضى لكم بقليل
بحُرمةِ ما قد كان بيني وبينكم ... من الوُدِّ إلاّ عُدتمو بجميلِ

وقول عروة بن أذينة : —

إن التى زعمتْ فؤادَكَ ملَّها ... خُلقتْ هواكَ كما خلقتَ هوى لها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها ... بلَباقة فأدقّها وأجلّها
حجبتْ تحيتَها فقلتُ لصاحبي ... ما كانَ أكثرها لنا وأقلّها
وإذا وجدتُ لها وساوسَ سلوةٍ ... شفع الضميرُ الي الفؤاد فسلّها

فالأول يستعطف النفوس بلغة النساء فى البيت الثانى ، والثانى يجمع بين وصفها بالجمال والدلال ، ووصف نفسه بالوفاء والاخلاص . وأما يزيد بن الطثرية فانه على خشونة عيشه قد أتى « بما ترقص له الأسماع ويرن على صفحات القلوب » كما يقول ابن الأثير :—

بنفسي مَن لو مرّ بردُ بنانهِ ... علي كبدى كانت شفاءً أناملهْ
ومَن هابَني فى كل شيء وهبتُهُ ... فلا هو يُعطيني ولا أنا سائله

ومن خير أمثلة ذلك قصيدة ابن الدمينة التى مطلعها :—

قِفِي يا أُمَيم القلبِ نقض لبانةً ... ونَشْكُ الهوي ثم افعلى ما بدالك (٢)

ولجرير وعمر بن أبي ربيعة ، وجميل ، والمجنون وسواهم أمثلة تصور هذا الأسلوب الرقيق أصدق تمثيل .

---

(١) الوساطة ص ٢٣ . (٢) مهذب الاغاني ج ٣ ص ٩٢ .

ثالثا — الرثاء

الرثاء فن الموت ، ولغة الحزن ، ومجال اليأس ، ومعرض الوفاء ، والحزن فى الاصل عاطفة سلبية تحمل الانسان على العكوف على النفس . والتفكير فى شأنها ، فهو انهزام أمام الكوارث ، ومدعاة الى الموعظة والاعتبار لذلك يكون أسلوب المراثى رقيقا لينا وبخاصة اذا صدر عن شاعرة لان « النساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهن جزعا على هالك لما ركب الله عز وجل طبعهن من الخور وضعف العزيمة. وعلى شدة الجزع يبني الرثاء ، فانظر الى جليلة بنت مرة ترثي زوجها كليبا حين قتله أخوها جساس ما أشجى لفظها وأظهر الفجيعة فيه وكيف يثير كوامن الاشجان ويقدح شرر النيران [١] » . والرثاء كغيره خاضع للتنوع ولقبول معان أخرى متصلة به كوصف الكارثة ، وتفخيم آثارها ، وذكر فضائل الميت واتخاذ مصرعه موعظة ، وقد يتسع أفقه فيشمل فلسفة الموت والحياة ، وينتقل الشاعر فيه من رثاء فرد الى بكاء قبيلة أو أمة أو دولة أو الدنيا جميعا [٢] تبعا لمكانة المتوفى. لذلك يتعرض الأسلوب لشيء من الاختلاف واضح تبعا لهذه المعانى والاغراض ، ولكنه مع ذلك لا يكون فى قوة الحماسة ولا عذوبة النسيب ، فالكلمات تدل علي معان سلبية مؤلمة كالفجيعة والكارثة ، والجزع ، والبكاء والخراب ، والصور من وادى الموت فالبيوت كالقبور والاطفال مروعون ، والنهار ليل ، والازهار ذابلة واليأس قاتل والامل مقتول وأما الجمل فرقيقة تصور الجزع أو شاكية صاخبة

---

١ — ابن رشيق : العمدة ج ٢ . ص ١٢٣

٢ — المؤلف : هلال اغسطس سنة ١٩٣٨ . الرثاء في شعر ابى العلاء

تحكي الفزع ، أو جزلة تعبر عن هول المصاب ، ومن ذلك تكون العبارة شجية مؤذنة بالأسى والحسرة . ومن أمثلة ذلك رثاء ابن الرومى ابنه ، وأبو تمام محمد بن حميد الطوسى ، والبحترى المتوكل على الله ، والمتنبي أمه والمعرى فقيها وكلها مشهورة معروفة ، ونذكر هنا أبياتا لديك الجن يرثى جاريته بعد أن قتلها :

يامهجةً جَثَم الحِمام عليها ... وجَنى لها ثمرَ الردى بيدِيها
روّيت من دمِها التراب وربّما ... روّى الهوى شَفَتى من شفتيها
حكمتُ سيفى فى مجالِ خناقها ... ومَدامِعى تجرى على خدّيها[1]

ومن ذلك قول حافظ ابراهيم في رثاء محمد فريد رئيس الحزب الوطنى المتوفى فى برلين سنة ١٩١٩

مَن لِيومٍ نحن فيه مَن لِغَدْ ... مات ذو العزمة والرأى الأسدّ

* * *

لَهفَ نفسى هَلْ (بَبرلينَ) امرؤ ... فوقَ ذاكَ القبرِ صَلى وسَجدْ
هَل بكتْ عَينٌ فروّت تُربةً ... هل علىَ أحجارِه خط أحَدْ؟
ها هُنَا قبرُ شَهيد فى هَوَى ... أمّة ؛ أيقظها ثمّ رَقَدْ.[2]

والعزاء قريب الرثاء ، وإن كان مذهبه مهوين المصاب ، وبث السلوى والتأسى بالسلف الهالك ، وقد سلك البحترى فى ذلك مذهبا طريفا حين عزى محمد بن حميد الطوسى عن ابنته ، فقال من قصيدة مطلعها :ـ

ظَلم الدهرُ فيكم وأساءَ ... فَعزاءً بَنى حُمَيدٍ عزاءَ

---

١ — العمدة : ج ٢ ص ١١٩ ٢ — الديوان : ج ٢ ص ١٩٧

أتبكي مَن لا يُنازلُ بالسَّيـ ـفِ مُشيحًا ولا يهز اللواءَ (١)
والفتى مَن رأى القبور لمَا طا فَ به مِن بناتِهِ أكفاءَ (٢)
قد ولدنَ الأعداءَ قِدمًا وورثـ ـنَ التلادَ الأقاصي البُعَداءَ (٣)
وتلفَّتْ إلى القبـائل فانظر أمَّهـاتٍ يُنسبْنَ أم آباءَ
ولَعمرى ما العجزُ عندي إلاَّ أن تبيت الرجالُ تبكي النساءَ

ومن خير النماذج القديمة فى هـذا الفن ما أورده أبو تمام فى حماسته لجماعة من الشعراء والشاعرات ومنها قصيدة تأبط شرا :—

إنَّ بالشِعبِ الذى دُونَ سَلمٍ لَقَتيلاً دمُهُ ما يُطَلُّ (٤)

رابعا — المدح والهجاء

والمديح فن الاحترام والمحبة كما أن الهجاء فن الازدراء والبغض ،وهما متعادلان فى الأسلوب وإن كانا متقابلين فى باعثهما الوجدانى . وللنقاد السابقين كلام كثير فى أصول هذين الفنين تجده فى العمدة لابن رشيق ونقد الشعر لقدامة والوساطة للقاضى الجرجانى . فالمديح يكون ملائما لطبقة الممدوح ، لوظيفته فى الحياة ملكا كان أو قاضيا أو قائدا أو كاتبا كما يحسن أن يتجه إلى الأعمال والآثار فيكون موضوعيا . ويحسن أن يبرأ الهجو من الفحش والسباب ، وأن يخرج مخرج السخرية والتعريض مع قرب المعانى وسهولة الحفظ . ومع اختلاف العبارات باختلاف المعانى التى يتناولها كل من الفنين ، تجد أسلوبهما متوسطا على العموم فليس كالحماسة العنيفة ولا النسيب الرقيق ، وإنما يخضع للجزالة غالبا وللسهولة أحيانا ،

١ـ مشيح : مجد مدافع ، اللواء لواء الحرب كناية عن القتال ٢ ـ يريد أن موت البنات خير من حياتهن ٣ـ التلاد : المال الموروث أو القديم في بيته ٤ـ الشعب الطريق فى الجبل سلع : جبل في بلاد هذيل وآخر عند المدينة ما يطل : ما يذهب هدرا دون الثأر له

ويذكرون زهيرا والنابغة والحطيئة من السابقين الموفقين فى هذا الباب لما اجتمع لهم من جزالة الأسلوب والقصد فى المعانى والأوصاف كقول الحطيئة يمدح بنى بغيض ويعرض بقرنائهم من بنى سعد :—

يسوسون أحلاماً بعيدا أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد[1]
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذى كدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا[2]
وتعذلنى أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذى علمت سعد

كما يذكرون البحترى من المحدثين لرقة شعره وحلاوة معانيه، من ذلك قوله فى الفتح بن خاقان من قصيدة مدح وعتاب :—

بلونا ضرائب من قد نرى فما إن وجدنا لفتح ضريبا[3]
هو المرء أبدت له الحادثا تُ عزماً وشيكاً ورأياً صليبا[4]
تنقل فى خلقى سؤدد سماحاً مرجى وبأساً مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً وكالبحر إن جئته مستثيبا

ومن أمثلة الهجاء قول جرير فى الراعى النميرى :—

ولو وزنت حلوم بنى نمير على الميزان ما وزنت ذبابا[5]
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا[6]

ولبيان خواص الأسلوبين نذكر فيهما الجزالة والوضوح وشدة التأثير

١ـ الاحلام : العقول الاناة : الوقار والحلم الحفيظة المحافظة يقول أنهم يحلمون مالم يضاموا والا فزعوا يدفعون عن كرامتهم ٢ـ ان عقد واشدوا : ان قالوا كلمة تمسكوا بها ٣ـ الضرائب جمع ضريبة : الطبيعة والسجية والضريب الشبيه ٤ـ وشيك سريع وصليب قوى حازم ٥ـ الحلوم العقول ٦ كعب وكلاب قبيلتان

وإن اختلفت الكلمات والصور بين مجد وهوان ، وانتصار وخذلان ، وكرم وبخل ، وشجاعة وجبن ، وأثرة وإيثار ، وشرف وضعة ، وبلاغة وعي ، وظلم وعدالة من هذه الكلمات التي تستدعيها المعاني المقصودة ، ثم بين السيف الصارم والرعديد الجبان ، ومضاء العزيمة وتخاذل الارادة ، والبحر في الجود ، والمنلول المنكود ، والبدر وضاءة والقرد دمامة ، الي نحو هذه الصور المشهورة .

خامسا — الوصف

وهو الكشف والاظهار ، والمراد هنا الوصف الأدبي الذي يتناول الطبيعة والانسان ، والآثار القائمة ، والمنشئات الجميلة ، والحوادث الكبيرة وكل ما يعن للانسان تسجيله باللغة ؛ فهو نظير الرسم والتصوير ، يعتمد على الخيال وصدق التعبير . والعاطفة الأساسية التي تنشيء الوصف هي الإعجاب والروعة بما يشهده الأديب فيفسره تفسيراً خاصاً متأثراً بمزاجه ووجهة نظره ، ويخلع عليه من نفسه تفاؤلها أو تشاؤمها ، إكبارها أو ازدراءها . ولما كان هذا الفن واسعا يتناول كل شيء كان أسلوبا متنوعا كثيرا[1] فوصف الحسيات غير وصف المعنويات . ووصف الحروب يختلف عن وصف المناظر الجميلة ، ولغة الأصوات المدوية تغاير لغة الألوان الزاهية . وفوق ذلك لا يخلو فن من الوصف ؛ فهو في الحرب حماسة ، وفي الجمال نسيب ، وفي الفضائل مديح ، وفي الحزن رثاء ، وهكذا تجد الشعر إلا أقله راجعا الي باب الوصف . يختلف أسلوب الوصف إذا ، باختلاف ما يوصف فهو جزل قوي في وصف الحروب وأصوات الطبيعة ، وحوادثها المفزعة ، ولين سلس في وصف العواطف الرقيقة حبا ، وعتبا ، واعتذاراً ، ولهوا ، وطربا ،

---

١ ـ راجع الوساطة ص ٢٩

ورائع جذاب فى وصف البروق اللامعة والكواكب النيرة ، والأزهار النضرة ، والأنغام الحلوة ، والجمال أنى كان . وقد سبق أكثر ذلك إلا وصف المشاهد الطبيعية والآثار الضخمة ، فيجب أن تكون كلماته حاكية صفة الطبيعة من لون وصوت، وحركة حتى إذا قرأه الانسان أو سمعه تمثل له الموصوف كأنه يراه بعينه ، ويسمعه بأذنه ، ويحس فى نفسه بجماله أو جلاله وأما الصور الخيالية فانها تعتمد على الطبيعة والانسان ، فالماء فضة ، والوجه بدر ، والخد ورد أو العكس ، والبلابل غريدة ، والانسان الرخيم الصوت كالكروان والنسيم أنفاس الأحبة .. إلى نحو ذلك حتى تجد الجمل والعبارات موسيقا طبعية ولن يتوافر ذلك إلا لقدير ذى لغة طيعة مواتية . من ذلك قول البحترى فى الربيع :—

أتاك الربيعُ الطلقُ يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبّه النيروزُ فى غسق الدجي ... أوائل ورد كنّ بالأمس نوما (١)
يفتقها بردُ الندى فكأنّه ... يبثّ حديثا كانَ قبلُ مكتما
ومن شجرٍ ردّ الربيعُ لباسَه ... عليه كما نشّرت وشيا مُنمنما (٢)
ورق نسيمُ الريح حتى حسبتُه ... يجيء بأنفاس الأحبّة نعّما

وقول شوقى فى احدى خمائل الجزيرة :—

وخميلةٍ فوق الجزيرة مسّها ... ذهبُ الأصيل حواشيا ومتونا (٣)
كالتبر أفقا والزبرجدِ ربوة ... والمسك تُربا واللّجين مَعينا (٤)
وقف الحيا من دونها مستأذناً ... ومشي النسيمُ بظلّها مأذونا

١ — النيروز أول أيام السنة معرب نوروز ٢ — الوشي نقش الثوب منمنم : مزخرف
٣ — الخميلة الموضع الكثير الشجر . الحواشى الجوانب . المتون الظهور والأعالى .
٤ — المعين الماء الجارى الظاهر .

وجرى عليها النيل يقذفُ فضة نثرا ، ويكسر مرمراً مسنونا (١)

في هذين المثالين تجد الوصف يتناول الألوان ، والحركات ، كما تجد الربيع والنيل ، والمطر ، والنسيم كائنات حية ، لها ارادة وشعور كالأناسى حتى لا يبعد الفرق بين هذه الأبيات وبين لوحة الراسم الا أن الثانية تعرض عليك المنظر دفعة واحدة ، ولكن الأبيات تعرضه متتابعا فى كل شطر أو بيت جزء وهى مع ذلك مفصحة واضحة . ومن الأوصاف المعنوية ما قاله ابن خفاجه الأندلسى يصف جبلا : —

وقورٌ على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى ناظرٌ فى العواقب

أصختُ اليه وهو أخرس صامتٌ ... فحدثنى ليلَ السّرى بالعجائب

وقال : الى كم كنتُ ملجأ قاتلٍ ... ومسوطنَ أواهٍ تبتّل تائب (٢)

وكم مرّ بى من مدلج ومؤوّب ... وقال بظلّى من مطى وراكبِ (٣)

فما كان الا أن طوتهمُ يدُ الردي ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فما خفقُ أبكي غيرُ رجفةِ أضلعٍ ... ولا نوحُ ورقى غير صرخةَ نادب (٤)

وما غيّض السلوان دمعى وانما ... نزفت دموعى فى فراق الصواحب (٥)

---

١ ـ المسنون السائل والمراد الماء الشبيه بالمرمر لونا وشكلا ٢ ـ الاواه : التائب : الراهب الذى يبنى صومعته في رءوس الجبال ٣ ـ المدلج السائر ليلا ، والمؤوب السائر نهاراً ٤ ـ خفق أبكى : خفق غصون الايك أى الشجر المتكاثف والورق جمع ورقاء حمامة ٥ ـ غيض : حبس

الفصل الرابع
فى اختلاف أساليب النثر

تقدم القول فى الفرق بين النثر العلمى والأدبى ، وقد لوحظ أن الأول لغة العقل والثانى لغة العاطفة على الأصل فيهما ، وعلى هذا الفرق الأساسى قامت أوجه الخلاف بين أسلوبيهما كما مر . وفى هذا الفصل نتقدم قليلا فنذكر بعض فنون أو موضوعات كل من النوعين وما قد يكون بينها من الفروق الأسلوبية .

النثر العلمى

واذا كان الأصل فى هذا النوع قيامه على العقل ، ونشر الحقائق الفكرية ، والمعارف العلمية والفلسفية فليس يخلو من العاطفة خلوا تاما ، حتى قال بعض النقاد : ليست هناك نصوص خالية من العاطفة الا أن تكون الأرقام الحسابية ، والرموز الجبرية ، والعلمية . ويمكن للقارىء أن يتبين مظاهر العاطفة فى الآثار الفلسفية والتاريخية والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية فيما يحسه من حرص الكاتب على نشر آرائه ، وصدق عقيدته فيها ، وترجيحه بعض الأفكار ، واعجابه بشخص أو عمل ثم ازدرائه آخر واستخدامه الخيال فى سد النقص الروائي واكمال ما فات المؤرخين . واذا كان لابد من الاشارة الي هذه الصفة العامة اللازمة لأسلوب النثر العلمى أو الأدب بمعناه العام فهى الوضوح Clearness . ولكن هذا لا يعفينا من الالمام هنا ببعض الخواص التى تميز كلا من أهم فنون النثر العلمى تاركين بعضها الآخر الي الكلام في صفات الأسلوب . ونذكر هنا : المقالة ،

والتاريخ ، والسيرة ، والمناظرة ثم التأليف .

المقـــالة

وتطلق فى العصر الحديث على الموضوع المكتوب الذي يوضح رأيا خاصا ، أو فكرة عامة ، أو مسألة علمية أو اقتصادية أو اجتماعية يشرحها الكاتب ويؤيدها بالبراهين . والمقالة من الأدب بمعناه العام أو العلم بمعناه العام تقوم علي عنصرين رئيسيين : المادة والأسلوب (العبارة) ، ولها بعد ذلك خطة (أو أسلوب عقلى).

ولما كانت المادة من المسائل الفكرية التى ترمى الي التعليم والاقناع وجب أن تكون صحيحة ، بريئة من الأخطاء والتناقص ، حتى تؤدى الى نتائج معقولة ولا بد من الحيطة فى تقرير الأحكام والنتائج ، فاذا تحقق الاستقراء أمكن تعميم الأحكام والا اقتصد الكاتب فيما يقول ، وبقدر كمية المعلومات وجدتها تكون قيمة المقالة .

وأما خطة المقالة . Plan . فهى أسلوبها المعنوى من حيث تقسيمه ، وترتيبه ، لتكون قضاياه متواصلة ، بحيث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها مقدمة لما بعدها ، حتى تنتهى جميعا الى الغاية المقصودة . وهذه الخطة تقوم على المقدمة ، والعرض ، والختام . فالمقدمة تتألف من معارف مسلم بها لدي القراء ، قصيرة ، متصلة بالموضوع ، معينة على فهمه بما تعد النفس له ، وما تثير فيها من معارف تتصل به . والعرض ـ أو صلب الموضوع ـ هو النقط الرئيسية أو الطريقة التى يؤديها الكاتب سواء أنتهت الي نتيجة واحدة أم إلى عدة نتائج هى فى الواقع متصلة معا وخاضعة لفكرة رئيسية واحدة

ويكون العرض منطقيا ، مقدما الأهم على المهم ، مؤيدا بالبراهين ، قصير القصص أو الوصف أو الاقتباس، متجها الى الخاتمة لأنها مناره الذى يقصده والخاتمة هى ثمرة المقالة وعندها يكون السكوت ؛ فلا بد أن تكون نتيجة طبيعية للمقدمة والعرض ، واضحة صريحة ، ملخصة للعناصر الرئيسية المراد اثباتها ، حازمة تدل على اقتناع ويقين ، لا تحتاج الى شيء آخر لم يرد فى المقالة .

وأهم ما يعنينا هنا هو الأسلوب أو العبارة اللفظية ، والصفة العامة اللازمة لأسلوب المقالة هى الوضوح ، وان لم يخل من القوة والجمال . ونرجىء القول في ذلك الى مكانه من هذه الرسالة . ومن كتب المقالات الفصول ومطالعات للعقاد ، وفيض الخاطر لأحمد أمين و حصاد الهشيم للمازنى ، والمختار للبشرى .

فاذا اتخذنا مقالة ـ أكاذيب المدنية ـ لأحمد أمين [1] ، مثلا تطبيقيا لهذا الفن الكتابى ، لاحظنا ، أولا ، هذه المقدمة التى استغرقت الصفحة الأولى لبيان جانبى المدنية : المادي والروحى ، وثانيا هذا العرض الذى سلك فيه طريقة التركيب اذ قال رأيه فى الموضوع مقدما . ثم أخذ يؤيده بالبراهين ، فكرة ، فكرة ، كما كان يفعل ابن خلدون فى أهم فصول مقدمته وقد انتهت به البراهين الى أن المدنية عرجاء تمشي على ساق واحدة هى الناحية المادية دون الناحية الروحية ، وأن علة ذلك ضيق النظر بتغليب القومية على الإنسانية . وثالثا هذه الخاتمة التى تقوم على الدعوة الى جعل

١ـ فيض الخاطر ، ص ١٣١

الانسانية المذهب الذى يعتنقه الجميع ويخضع له كل ما فى الحياة حتى يسعد الناس والا فالمدنية مجموعة أكاذيب .

ومهما يكن من قيمة هذه المقالة من الناحية العملية ، فلا شك أن أسلوبها مثال الوضوح الناشىء عن دقة الكلمات ، وسهولة التراكيب ، وتواصل الفقرات لفظيا ومعنويا ، فكانت العبارة واضحة ، بمعونة — أو على الرغم من — العبارات العامية .

التاريخ

وقد كثر الكلام فيه : أعلم هو أم أدب [1] ؟ فمن نظر إلي أنه يتناول الحقائق الواقعية ، ويعنى بتجميعها ، ونقدها نقدا موضوعيا قال بأنه علم يشبه علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) . ومن لحظ أنه لا بد للتاريخ من خيال الشاعر لنشر الحوادث وبعث الحياة فيها . ثم لا بد له من براعة الكاتب البليغ لتعرض هذه الوقائع فى الثوب اللائق بها قال بأنه أدب . علي أن من قال بعلميته يعترف بأنه ليس كالفلك : علم معاينة مباشرة ، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق . ويمكن أن يعد التاريخ ، علما بالمعني العام أو أدبا بالمعنى العام ، مادام خاليا من التجارب الدقيقة التى تدخله دائرة العلوم الطبيعية ، ولم تستأثر به العاطفة ليكون أدبا خالصا .

وللتاريخ — كالمقالة — خطة ، ومادة ، وعبارة (أو أسلوب لفظى) أما مادة التاريخ فهى الشئون الماضية التى يرجع إليها فى الآثار الباقية . والسجلات القديمة ، والتقاليد التى سلمت من عدوان الدهر وصروفه ، فعليها يقيم أبحاثه ، وينهض بما يجب عليه من تحقيق ، وتأويل ، وتعبير ، حتى

١ — راجع علم التاريخ للاستاذ هرنشو ، ترجمة الاستاذ عبد الحميد العبادى . الفصل الاول .

إذا أشرف على ذلك وجد أن الحوادث الماضية مغمورة بكثير من الآراء والانفعالات ، فلجأ إلى الخيال لاستحضار الماضي ، وإلى العاطفة لبعثه حيا كما كان يقع سابقا . وأما خطة التاريخ أو أسلوبه العقلي فتقع في ثلاث مراحل: جمع الوثائق التاريخيه ،ونقدها لتعرف قيمتها وصلاحيتها للتصديق ثم تفسيرها تفسيرا معتمدا على طبيعتها ، وعلى الخيال ، وعلي ما قد ينفع من أصول العلوم الحديثة كعلم النفس ، والاجتماع ، والجغرافيا . أما الأسلوب اللفظي ، فيجب أن يكون واضحا جميلا كما يذكر ذلك بعد ، ومع هذا فنذكر هنا بعض الخواص الشديدة الاتصال بالكتابة التاريخية :—

(١) يجب علي المؤرخ أن يحرص على استعمال المصطلحات التاريخية في مواضعها ، فانها تحدد المعانى والعصور ، وتسهل بين الكاتب وسواه وتريحه من عناء التفصيل والتكرار مادامت هذه المصطلحات ألفاظا مقررة تشبه الحدود وعلامات الطريق ، مثل الجاهلية والعصر العباسى ، وعصر النهضة والقرون الوسطى . والميلاد والهجرة وعصر الأهرام .

(٢) يجب أن يكون ، واضحا فى منهجه وآرائه وعباراته فلا تكرار ولا صنعة اذ أن النثر العلمى يرفض التكرار . ويمقت التكلف لما فى ذلك من الغموض وضياع المعاني ، وتنفير القراء الذين ينتظرون الحقائق التاريخية منطقية واضحة .

(٣) ليحذر المؤرخ أن يتخذ التاريخ معرضا للخطب والمواعظ ، لأن التاريخ ـ كالرواية ـ تؤخذ العظة منه بطريق غير مباشرة . على أن ذلك يعد نقلا للتاريخ من دائرة النثر العلمى الي مجال النثر الأدبى الخالص وذلك خلط واضطراب لا يليق بالكاتب البليغ .

(٤) لما كان التاريخ رواية الماضى من ناحية ، ونقدا فلسفيا من ناحية أخرى ، كان أسلوبه وسطا بين العلمى الدقيق والأدبى الرقيق . لا يسلم من مظاهر القصص أو الرواية حتى لا يجف ويثقل ، ولا يخلو من النقد والتقرير ليؤدى مهمته الرئيسية . لذلك يقصر فيه الوصف والحوار والاقتباس وإن ظهرت آثار العاطفة والخيال فى عباراته الجامعة بين الوضوح والجمال .

ومن أمثلة الكتب التاريخية ، فى الأدب الجاهلي لطه حسين ، وفجر الاسلام وضحاه لأحمد أمين ، وتاريخ الأمم الاسلامية للخضرى .

السيرة

وهى التاريخ الخاص بحياة الأفراد فى الغالب : وتخضع فى خطتها لطرق ثلاثة : —

الأول : أن يكتب المؤرخ فى سيرة غيره ، فيختار الحوادث والآثار وينسقها ويفسرها . ثم يصدر أحكامه على صاحبها تعديلا أو تجريحا . وهى طريقة نافعة تبدو السيرة فيها متجانسة العناصر ذات وحدة واحدة . ونغمة منسقة . تهب للكاتب حرية النقد والاختيار . ولكنها مع ذلك معرضة للغلو فى المدح أو الثلم وسوء الأحكام . مادام الكاتب متأثراً بوجهة نظره هو . من ذلك : تراجم لهيكل : وحياة محمد له ، وذكرى أبى العلاء لطه حسين وحديث الأربعاء له .

الثانية : أن يسلك المؤرخ مسلكا غير مباشر ، يتوارى هو خلف الموضوع ليجعله يدل على نفسه بنفسه . فيعرض علينا أقوال الفرد . وآراءه ومذهبه الخلقى . ويذكر أصدقاءه وأساتذته وشعره ونثره دون أن يلح عليها بالنقد والتحليل ، وهي طريقة معرضة لعدم الانصاف الناشىء عن سوء الاختيار

أو الايجاز فيه ونقص المختارات أو عدم تجانسها . أو ايراد أشياء تافهة ثانوية لا تمثل رأياً ولا حياة جدية ، وتجد مثلا لذلك فى نحو الأغانى ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان لابن خلّكان . وكتب الطبقات.

الثالثة : أن يكتب المؤرخ سيرته بقلمه مثل الأيام لطه حسين . وحياة ابن خلدون التى أثبتها آخر تاريخه المشهور. وهي طريقة مفيدة فى ايراد الحقائق وتفسير الحوادث بوجهة نظر صاحبها . وصدق الشعور فى تصوير المواقف المختلفة ولكنها معرضة للقصور اذا حابى الكاتب نفسه أو أخفي بعض أسرارها . أو استعمل الرياء والصنعة فيما يقول . ومهما تكن السيرة فأسلوبها كأسلوب التاريخ فى وضوحه . وجماله وترتيبه ، وان كانت السيرة أميل الى أسلوب القصة وسيأتى الكلام فيه .

المناظرة والجدل

يقول ابن خلدون وأما الجدل — وهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم — فانه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج. ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة الي أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول[1] وسميت هذه الآداب والأحكام فيما بعد « أدب البحث والمناظرة». والخلاف والجدل فى عرف العلماء الآن يخالفان البحث والمناظرة من حيث أن الغرض منهما الالزام ، والغرض من المناظرة اظهار الصواب[2] فهى تعني بخدمة الحقيقة والصواب، لا يعنيها الناس كما يعنيها اثبات الحق وبيان وجه الصواب

١ - المقدمة ص ٥٠١ مطبعة التقدم ٢ - الشيخ حسين والى . الموجز ص ١٢

وعلى أية حال فنحن هنا أمام ضرب من الكلام يشترك فيه اثنان على الأقل يحاول كل منهما اثبات رأيه وابطال رأى خصمه بالحجة والبرهان ويتناول المسائل العلمية والسياسية والاجتماعية والفلسفية وغيرها . وقد كان فيما مضى وسيلة الفرق الاسلامية ، وأصحاب المقالات الفلسفية والأدبية فى الحوار وتقرير الآراء . بدأ شفويا كالحديث والخطابة . ثم صار كتابيا يسجل فى كتب ورسائل حتى الآن وقد زادته المطبعة انتشارا وقوة حتى ملأ الصحف والمجلات ، والكتب العلمية والأدبية . وهو فن نافع في كشف الحق وازهاق الباطل بالحجة الصحيحة ، والمنطق الصواب . والنوع الادبي منه الحقيقى كهذه المناظرة التى حدثت فى نيسابور بين الهمذانى والخوارزمى[1] ومنه الخيالى الذى يكتبه الأديب لبيان رأيين مختلفين فى مسألة بهذا الأسلوب الجدلى كمناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب التى كتبها الجاحظ فى الحيوان . والمناظرة التى كتبها الآمدى فى الموازنة بين أبى تمام والبحتري والمناظرة بين السيف والقلم لابن الوردي وغيرها كثير .

والناظر فى هذا الفن يجد له أصولا خاصة به دونها العلماء تتناول المتن والسند ، والمقدمة والدليل ، والتقسيم وغيرها من مسائله الموضوعية والمعنوية[2] والذى يعنينا هنا العبارة . أو الأسلوب اللفظى الذى يؤدى هذه المعاني . وهو لا يمتاز فى الواقع بشىء جديد غير ما نجده فى المقالة والخطابة اذ كانت كلها فنونا إقناعية . ولكنه مع ذلك . ذو مظاهر ثانوية أشد اتصالا به : —

١- رسائل بديع الزمان الهمذاني ص ٢٨ طبعة بيروت سنة ١٩٢١

٢ - راجع فى ذلك نقد النثر ، ص ١٠٢ وما بعدها .

(١) منها أن المناظر مرتبط بخصمه، مقيد بأفكاره الى حد ما ، فهو يستمع اليها ، أو يقرؤها ثم يناقشها ، ولذلك يردد في عبارته كثيرا من ألفاظ نظيره وعباراته اذ كانت موضوع الحوار.

(٢) ومنها أن موضوع المناظرة والجدل يكون مقسما الي فصول ونقط يدور عليها الحوار واحدا بعد الآخر . حتى يستحيل الاسلوب الشفوى أحيانا الى سؤال فجواب . واذا عرضت نقط الجدل كلها أولا ، أعيدت ثانيا لتأييدها أو رفضها . فالترديد واستعمال الاقيسة المنطقية من عناصر المناظرة .

(٣) لابد من الحرص على الألفاظ الاصطلاحية الخاصة بموضوع المناظرة تسهيلا للتفاهم ، وتحديداً للافكار . كذلك يجب ان تكون العبارة دقيقة واضحة ليس فيها إسهاب مخل ولا تكرار غير مفيد .

(٤) اذا اضطر المتناظر الي استخدام الاسلوب الخطابي للتأثير فليحذر الغلو فيه أو الصنعة ، لأن المناظرة موضوع عقلي إقناعي قبل كل شيء ، وكل من الغلو والصنعة ذاعية السخرية والسقوط .

(٥) وأما القوة والجمال الأسلوبي فسيأتي القول فيهما .

التأليف

وهذا الفن من أبواب المنطق التطبيقي ، يخضع لما يسمى مناهج البحث وقد ذكرناه هنا لنشير الي اختلاف مناهج البحث والتأليف باختلاف موضوعاتها : الرياضية ، والطبيعية ، والاجتماعية ، والادبية[1] ، ولكل أثره

---

١ — راجع المنطق التوجيهى تأليف (أبو العلا عفيفي) الفصل الثانى عشر

فى الأساليب مادامت العبارة صورة للمعانى والموضوعات. هذا من ناحية ومن الناحية الثانية نرى أن للشخصية أثراً واضحاً فى منهج التأليف والبحث فاقتضى ذكره هنا ، واذا كان لابد من الاشارة الى نحو من ذلك مقارب، فهؤلاء كتاب السيرة النبوية المعاصرون ، محمد حسين هيكل ، وطه حسين وتوفيق الحكيم ، فالصفة التقريرية العلمية كانت لأولهم ، فظهر كتابه خاضعا لمناهج البحث العلمي الواضح في الفصول والأقسام ، وفى عرض الآراء ومناقشتها ، وفى الاستقصاء والعناية بالحقائق وتخليصها من الاساطير وتفسيرها بروح العلم والدين ، وكان أسلوبه لذلك ممتازا بالوضوح ، والدقة العلمية ، والمساواة ، وإن لم يخلص من الشعور الدينى .

وقد أخلص ثانيهم لفنه القصصى فاستلهم المراجع القديمة ، والصور القديمة التى صاحبت حوادث السيرة ، وانتقل الى أماكنها كذلك. وعاش مع أهلها يتلقى عنهم الحقائق والخياليات ، والتواريخ والاساطير، حتى اندمج فى هذا الماضى وأعاده الينا قصصاً جميلا حقاً ، بأسلوبه الفياض ، الموسيقي ، المستقصى ، فلم يتقيد بالمنهج العلمي فى التحقيق ، والتقسيم ، وفى مجانبة الخيال ومناقشة الآراء والأقوال.

وأما ثالثهم فكان عالما أديبا (ممثلا) استخلص الحقائق ولكن بالروح الاسلامية ، واختار رءوسها الهامة، وقسمها فصولا ومناظر، وأداها بهذا الأسلوب الحوارى الذي هو أسلوب القصص التمثيلية، مع الاحتفاظ بعباراته القديمة ما أمكنه ذلك .

الأول عالم ، والآخران أديبان : قصاص وممثل

النثر الأدبي

وأما النثر الأدبي فيمتاز بقوة العاطفة التي تؤثر في عباراته تأثيرا واضحا يبدو في الكلمات ، والصور ، والتراكيب . وليس معنى ذلك خلوه من الأفكار القيمة ، والحقائق المبتكرة ، كلا ، فان الحقيقة عنصر أدبي هام وهي في النثر ألزم لذاتها أولا ، ولأنها تسند العاطفة وتبعث فيها القوة ثانيا . لذلك نجد هذه الفنون الأدبية للنثر تعتمد على العنصر العقلي مهما تتوسل بقوة الشعور ، وجمال التعبير ، تجد ذلك في الرواية ، والرسالة ، والخطابة ، والوصف ، والمقامة ونحوها . وإذا كان الوضوح هو الصفة الأصيلة في الأسلوب العلمي ، فهو هنا لازم كذلك للاسلوب الأدبي ، مع صفتي القوة والجمال . ولكل صفة وسائل لتوافرها ، تراها قريبا . ونذكر هنا بعض فنون النثر الأدبي مشيرين إلى أهم قوانينها ذات الأثر الواضح في عباراته ، تاركين تفصيل هذه القوانين إلي مناسبة أخري .

الوصف

سبق أن معناه في اللغة الكشف والاظهار ، ومعناه الأدبي تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية باللغة ، وهو كالرسم في أنهما من الفنون الجميلة وفي اعتمادهما على الألوان للافهام والتأثير . وفي انقسامها الي نوع وقعي وآخر مثالي جميل ، وكلاهما يتناول الأشياء في حاليها المستمرة الثابتة والمتغيرة المتتابعة . والوصف — فوق ماله من قيمة فنية تظهر في نصوصه نظما ونثراً — يدخل في تكوين الفنون الأدبية الأخرى كالرواية ، والرحلات ، والتاريخ ، والخطابة ، والرسالة ولهذا الفن قوانين متصلة بأقسامه . وتكوينه . نذكر منها هنا أهم ما يؤثر في أسلوبه اللفظي :—

(١) يقـوم الوصف الأدبى على اختيار أهم العناصر التى تميز الموصوف وتكون مصدر الجمال والتأثير ، تاركا الأشياء التافهة أو التفاصيل العلمية الدقيقـة . ثم يفسر هـذه العناصر تفسيراً عاطفيـا خياليا متأثراً بمزاج الأديب . وذكائه : فالزهرة بألوانها الجميلة ، وشكلها المنسق ، وعبيرها الفيـاح ، ثم ما تبعثه فى النفوس من معانى الدل، والشباب ، والأمـل ، والإعجاب :—

ومائسةٍ تُزهى وقد خلع الحيـا عليها حلي حمراً وأردية خُضرا
يذوب لها ريق الغمائم فِضَّةً ويسكن فى أعطافها ذهبا نضرا

(٢) ولما كان هذا الفن معتمداً على الخيـال فى التصوير كانت عبارته حاوية هذه الصور الخيالية من تشبيه ، ومجاز ، واستعارة ، ومبالغة ، ومقابلة لأن فى كل صورة من هذه ميزة لتقوية المعنى أو تجسيده ، أو إلحاقه بما هو أقوى منه ، استجابة لقوة العاطفة والانفعال . وقد رأيت فى المثال السابق . كيف استحالت الزهرة فتاة مزهوة بنفسها ، معجبة بما خلع عليها المطر من حُـلي وحُـلَـل ، وكيف فتن بها الغمام ، فسال ريقـه فضة ، ثم أحالته ذهبا حين استقر فى أعطافها . كل تلك صور خيالية متتابعة ، لا بد منها لتصوير اعجاب الشاعر — ابن خفاجـه الاندلس — بالزهرة ، وما بعثت فى نفسه من معان وانفعالات . وكذلك الشأن فى المنثور يقـول السيد توفيق البكرى فى وصف البحر :— « فاذا كان الأصيلُ [١] وسرى النسيم العليل ، رأيت البحر كأنه مِبرَد ، أو درع مُسَرَّد [٢] ، أو أنه ماويّـة [٣] تنظر السماء فيها

١ — قبيل الغروب — ٢ متداخلة الحلق — ٣ مرآة

وجهها بكرة وعشيّة، وكأنما كسّر فيه الحلى أو مزج بالرحيق القُطرُبلي [١] وكأنما هو قلائد العقيان [٢] أو زجاجة المصور يؤلف عليها الأصباغ والألوان . حتى إذا أخضل [٣] الليل ، وأرخى الذيل ، بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء ، يشق الظلماء [٤] وقد غلب التشبيه على هذا النص وإن لم يخل من الصور الأخرى .

(٣) يجب أن تكون الكلمات من الدقة بحيث تكون صدى صادقا لما تحكي من صوت ، أو تؤدي من معنى ولون . لذلك حسن الاستعانة بالنعوت التي تزيد فى التحديد أو الروعة ليكون الوصف كاشفاً حاكيا ما وراءه ، فسمعه الانسان فكأنما يشهد الطبيعة فى أفوافها ، والصوز في إيتلافها ، وكأنما يسمع الرعد القاصف أو الآذى الصاخب ، أو البلابل الغريدة ، أو نجوى النفوس ، وهمسات الفؤاد ، وخواطر الضمير . ومن ذلك خصت اللغة كل صوت باسم ، وكل لون بميزة ، وكل طور في الحياة بعلمه ، وكثرت فيه الكلمات والتراكيب التي تحكي صوت الطبيعة ، وتدل بجرسها على معانيها . من ذلك الصخب لصوت الخصومة ، والزجل رفع الصوت عند الطرب ، واللجب صوب العسكر ، والهتاف رفع الصوت بالدعاء ، وزئير الأسد ، ونباح الكلب ، وضباح الثعلب ومواء الهرة ، ويقال : جيش لجب وعسكر جرار ، كما يقال أصفر فاقع ، وأحمر قان ، وأسود حالك الي غير ذلك . ويحسن مثالا لذلك ما ورد لأبي زبيد الطائى فى صفة الأسد : «وأقبل أبو الحارث من أجمته [٥] ، يتطالع [٦] في مشيته كأنه مجنوب أو في هجار [٧] ،

١- نسبة الي قطربل موضع بالعراق ينسب اليه الشراب ٢ - الذهب ٣ - أظلم ٤ معراج البيان ج ١ ص ٣٥ ٥- مأوى الاسد ٦ - يغمز ٧- به ذات الجنب او مشدود في حبل

لصدره نحيط وليلاعمه غطيط [١] ، ولطرفه وميض ، ولأرساغه نقيض [٢] كأنما يخبط هشيما ، أو يطأ صريما [٣] ، وإذا هامة كالمجن [٤] ، وخد كالمسن [٥] ، وعينان سجراوان [٦] كأنهما سراجان يتقدان . »

ولا يظن أن ذلك إغراب في اللفظ وإنما هي الدقة في تحديد الأفكار ، وتصوير العواطف ، وحكاية الحوادث .

(٤) يجب أن تكون التراكيب والعبارات ذات نغمة عامة ملائمة لما يوصف سواء أكان منظرا رائعاً يبعث الاعجاب ، أو معركة حامية تثير الرهبة ، أو حوادث متتابعة تملك العقل ، أو يأسا قاتلا أو أملا عريضا ، بحيث يكون الأسلوب اللفظي حكاية للأسلوب المعنوى ، ويتحقق بذلك ايتلاف اللفظ والمعنى كما بينا ذلك فى فنون الشعر ، ولذلك تجد الوصف النثرى مختلف العبارات قوة ولينا باختلاف الموضوعات كما رأيت فى الموضوعين السابقين ، روعة فى الأول . ورهبة فى الثانى . وقد أورد ابن الأثير [٧] فى هذا المعرض مثالا لقوة الأسلوب وجزالته قوله تعالى : «ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون» وقوله تعالى: «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم . وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم . وضل عنكم ما كنتم تزعمون » وأورد مثال الرقيق من الألفاظ قوله تعالي : « والضحى ، والليل إذا سجي ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك

---

١ ... البلاعم مجاري الطعام في الحلق والغطيط الهدير ٢-صوت شديد ٣ .. الارض المحصود زرعها ٤-المجن : الترس ٥-مايسن عليه من حجر ونحوه ٦ .. السجر في العين ان يخالط بياضها حمرة .
٧ - المثل السائر ص ٦٥

ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوي . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . . »

(٥) وكما يكون الوصف حسيّا يتناول مظاهر الأشياء ثابتة ومتحركة كذلك يتناول النواحي المعنوية . كالفضائل النفسية والعواطف النبيلة والآلام المبرحة . والآمال البهيجة . وما يدور في النفس من شك ويقين ومن أمثلة ذلك ما كتبه طه حسين في وصف الفيلسوف الحائر : « ثم يخيل الى الفتى كأن عقله قد وقف عن التفكير . وكأن قلبه قد عجز عن الشعور حينا . وكأن في نفسه شيئا يشبه النوم ، وليس بالنوم ، وكأنه يسمع ذلك الصوت الغليظ الخشن وهو يبعث في الفضاء قهقهة عالية ملؤها السخرية والاستهزاء ، فيعود الفتى الى شعوره الأليم وتفكيره العقيم واذا هو يسأل نفسه مرة أخرى عن هذا الصوت: ما هو ؟ وما عسي أن يكون ؟ وترتسم على ثغره ابتسامة أخرى فيها سخرية مرة واستهزاء حزين ، فهو يسأل نفسه : ألا يمكن أن يكون هذا الصوت الذى أغراه بالعودة صوت إله من هؤلاء الآلهة القدماء الذين كان يعبدهم ، ويقبل عليهم في المدينة مع صاحبيه ثم لم يلبث أن شك فيهم وتنكر لهم وأعرض عنهم واستجاب لصديقه الشيخ وجعل يبحث عن إله جديد دون أن يبلغه أو يهتدي اليه ، فأضاع نفسه بين قديم كان يعرفه ، وجديد لا يألفه »[1] وللجاحظ قطع رائعة من هذا الضرب منبثة في البخلاء والحيوان[2]

الرواية

إذا كان الأصل في الوصف تصوير المشاهد والمشاعر ، فان الأصل في

١ ـ على هامش السيرة ج٢ص١٣١ ٢ ـ من ذلك وصف قاضي البصرة ج ٣ص١٠٦ حيوان

الرواية حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب ينتهى الى غرض مقصود . وكلا الفنين يتناول ما يحيط بالانسان ، واذا كان الوصف يقابل الرسم فان الرواية تشبه الخيالة (السنما) .

والرواية — أو القصة — فن طبعى قديم صاحب الأمم من عهد البداوة الى ذروة الحضارة ، ولا يزال الى اليوم يمثل مكانة ممتازة بين الفنون الأدبية الأخرى لاتصاله بحياة الناس الماضية أو الحاضرة . ولمرونته واتساعه للأغراض المختلفة ولجمال أسلوبه وخفته على النفوس . وقد كان هذا الفن سمر العرب فى الجاهلية حتى بلغ به القرآن الكريم أسمى درجة بابلغ أسلوب وأفصح بيان ثم نشط بعد ذلك وتعددت أنواعه وأغراضه فكان حقيقيا كقصص الرحل والملوك والأدباء ، وخياليا مثل كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء ، ومنه نوع أدبى قصير كالمقامات . وحماسى طويل كقصة عنترة [١]

وفى العصر الحديث أخذت الرواية وضعا فنيا . وخضعت لبعض القوانين فى التأليف والأسلوب ، فكثرت أشخاصها وحوادثها وتشابكت ثم تعددت مواقفها ونتائجها ، ودونها فى ذلك القصة Story ثم الأقصوصة أو الحكاية ذات المغزى الواحد والفكرة الواحدة على قصرها وقلة حوادثها وأشخاصها وبساطتها ، فهى للرواية كالمقطوعة من الشعر بالنسبة للملحمة الكبيرة ثم تنوعت من ناحية موضوعها الى رواية تاريخية ، واجتماعية وفلسفية وفكاهية ، ومنها النوع التمثيلي والقصصى للقراءة الى غير هذا ويعنينا هنا أن نذكر أهم الخواص المتصلة بأسلوب الرواية ، وخطتها العامة

(١) الصفة العامة التى تخضع لها خطة الرواية Plot هى التسلسل

١ - راجع المختصر لجورجى زيدان ص ١٣٨

والاطراد بحيث يشعر القارىء أنه مسوق دائما الي غاية ، فهو في ترقب وانتظار شائق . وكل قسم أو فصل يعد لما يتلوه حتى تتوالى الحوادث والمناظر وتنتهى الى الغاية المقصودة .

(٢) لذلك يحسن أن تختار الحوادث الهامة - من التاريخ القديم أو المعاصر — وتنسق تنسيقاً منطقيا ، وتوجز فتحذف تفاصيلها التافهة ، كل ذلك ليطرد سياق الرواية ، ولا يبدو فيها عرقلة أو اضطراب ، وتسير مختلفة بين السرعة والبطء حسب المواقف ، وإن كانت السرعة أليق بنهاية الرواية .

(٣) تكون الرواية ذات مغزى رئيسى يفهم من السياق وبطريق غير مباشرة حتى لا تستحيل القصة ، خطابة ، أو مقالة ، وهناك عظات أو غايات أولية تظهر أثناء الرواية ، وتندمج فيها لتحقيق الغرض الرئيسى ، كخبر جديد أو حادثة هامة ، أو نقد سياسى أو اجتماعى .

٤) يجب أن تكون العبارات سهلة ، واضحة. لا تحوج القارىء ولا السامع الي توقف لأنه معنى بمجري الحوادث ، ومغازيها . فهى هنا كالخطابه إذا تعقدت تراكيبها أو غربت ألفاظها ذهبت فائدتها وروعتها.

(٥) العبارة منوعة بين الرقة والقوة حسب المواقف والشخصيات فلغة الرجال غير لغة النساء . ومواقف الوعيد تخالف مواقف العتاب ولكنها مع ذلك جميلة قوية تصور المواطف والأفكار والمناظر أصدق تصوير وتجعل القاريء كالمشاهد، والمشارك كأنه يشترك فى حوادث الرواية.

(٦) يتنوع الأسلوب بين القصص ، والوصف ، والحوار ، وقد يكون خطابة أيضا ، ولكن الوصف يقصر ويوجز — لان مهمته التمهيد

وتصوير البيئات — حتى لا يعرقل سياق القصة . والحوار يكون نشيطاً. دقيقا ، يخلص القصة من الرتابة ، وهو عماد الروايات التمثيلية ، وإذا كان لابد من الخطابة فلتكن قصيرة غير مملة .

(٧) من مظاهر الأسلوب القصصى المبالغة أحيانا للتنبيه إلى النقط الهامة، والمفاجأة وذلك حين تتحقق النتائج قبل أوانها لطارىء من الطوارىء ،والرمز حينما يكتفى بأول الحادثة أو الاشارة إليها ثم يترك للخيال مجال التصور والاتمام .

(٨) يدخل عنصر الحب فى الروايات والقصص على أنه ثانوي - لقوته ، وسلطانه العام على النفوس ، ولأنه فى الغالب سمة الشباب المحبوب : ولكل إنسان فيه مشاركة ، على أنه قد ينفرد بالقصة فيكون موضوعها .

والقصص التمثيلية وغيرها مشهورة متداولة بين أيدينا منها المترجم والموضوع ، تراها فى آثار المنفلوطى ، وتوفيق الحكيم ، وهيكل ، وطه حسين : فى العبرات ، والفضيلة ، وأديب . وعلى هامش السيرة ، وابراهيم الكاتب وسارة وغيرها كثير .

المقامـــة

وهى نوع من القصص الأدبية القصيرة التى تعتمد على الخيال فى تأليف حوادثها ، وترمى إلى غاية مثل تعليم اللغة ، وسرد الموعظة ، ووصف الأشياء ونقد الأدب ، والعناية بالعبارات الجزلة البديعة ، واشتقاقها من المقام أى مكان القيام ، ثم قيل لما يقام

مكان القيام . وكان ذلك فى الخطب والتكلم فى المحافل ثم قيل لما يقام فيها من خطبة أو موعظة مقامة [١] . وقد ترقى هذا الفن على يد بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ هـ) إذ أنشأ مقاماته ونحلها أبا الفتح الاسكندري على لسان عيسى بن هشام ، ثم تبعه الحريرى (٥١٦ هـ) فأنشأ خمسين مقامة نحلها أبا زيد السروجى على لسان الحارث بن همام ، ثم تبعهما فيها الأدباء على مر العصور كالسيوطى ، وابن الجوزى ، والقلقشندى ، وغيرهم كثير ، حتى أطلقها المعاصرون على مقالات فكاهية عامية نشرتها ولا تزال تنشرها بعض الصحف الأسبوعيه فى النقد والفكاهة . وقد ترجمت مقامات الحريري إلى اللاتينية ، والفرنسية ، والانجليزية والألمانية ، والفارسية ، والتركية ، وتزال تدرس فى الجامعات الأوربية بشرح سلفستر دساسى الذى وضعه سنة ١٨٢٢م.

ويمكن تمييز المقامات بما يلي :—

(١) أنها تدور فى الغالب على حادث عادى واحد يتكرر فيها ؛ فالبطل — كأبى الفتح الاسكندرى فى مقامات البديع أو أبي زيد السروجى فى مقامات الحريرى — يبدو للراوى متنكرا ثم يكون بينهما حوار فى موضوع ما ، وأخيرا يعرفه الراوى ، فكأن السر هو عرفان البطل بعد ما كان متنكرا مجهولا .

(٢) وتتناول — موضوعيا — مسائل منوعة من النقد الأدبى ، والاجتماعى ، والدينى ، والخلقي ، ثم العظات ، والفكاهات ، والأوصاف ، والحكايات التى تصور كثيرا من خواص البيئات التى أنشئت فيها كالمقامة القريضية والعراقية والأسدية لبديع الزمان .

١ — راجع تاريخ الأدب العربي للزيات ، ص ٣٤٣ ، الطبعة الخامسة ، والنثر الفنى لزكي مبارك ، الباب الثالث ، ص ١٩٧ .

(٣) وعباراتها تقوم على الصنعة البديعية من سجع وجناس، وازدواج وطباق ومبالغة ، واستعارات على اختلاف بعد ذلك . فى الاغراب اللغوى ،ودرجة التكلف. فلاشك أن الحريرى كان اكثر إغرابا ، وأشد تكلفا ، ومبالغة من بديع الزمان .

(٤) يختلف الأسلوب بعد ذلك بين الوصف ، والقصص، والحوار فيه المديح والهجاء ، والجد والمجون ، وهو — على صنعته — مختلف بين الرقة واللين ، والجزالة والقوة ، وكثيرا ما تجد النوعين فى مقامة واحدة.

(٥) تجمع المقامات إلى هذا النثر الجزل البديعى قطعا من نظم الرجز وغيره وليس المنظوم هذا فى روعة الشعر الممتاز الذى نجده عند البحترى والمتنبى مثلا ، فهو من إنشاء مؤلفى المقامات ، وقد عرفت طبعهم الصناعى ووقوفهم عند الكلام المنثور .

وقد يظن الناس أن المقامات من باب القصة كما يعرفها الأدب الحديث والحق ، أن المقامات لا تثبت للقصة من كل ناحية . نعم فيها الحكاية ، والحوار ، والوصف ، والمغزى النقدي أو الوعظى ، ولكن تنقصها أشياء أخري تبعدها عن طبيعة القصة ، من ذلك عدم التنويع فيها فالأشخاص لا يتغيرون ، والحادثة واحدة ، والحرص علي المال سائد فيها . ومن ذلك التجافى عن التحليل النفسى أو عرض المشاكل وعلاجها ، أو الابتكار في تصوير المواهب والأشخاص . ومن ذلك عدم استكمالها عنصرى الحياة — الرجل والمرأة معا — بأسلوب يبعث المشاكل أو يثير العواطف أو يدرس المسائل الاجتماعية . على أن المواعظ ترد فيها صريحة مباشرة مقصودة لذاتها . وفوق ذلك فمندي أن أسلوبها فى صنعته وغرابته ليس أسلوب

الرواية أو القصة التي تعنى بالموضوعات والأفكار التي تهم القراء، وحسبها أنها من هذه الناحية مدرسة لغوية أدبية. وليس من اللازم أن نورد هنا أمثلة للمقامات، ونعرض لها بالشرح والتحليل، فهي مشهورة ذائعة، على أن المقام لا يتسع هنا لمثل ذلك.

الرسالة

والمراد بالرسالة هنا هو الخطاب المكتوب في غرض جزئي، يبعث به صاحبه إلي آخر. وقد عرفت الرسائل منذ الجاهلية في بعض البيئات التي عرفت فيها الكتابة، ولما جاء الاسلام كتب الرسول عليه السلام إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى الدين وتبعه الخلفاء من بعده. وأخذ هذا الفن يرق، ويتنوع، مع تقدم الحياة الاسلامية حتى صار من أكثر فنون الأدب شيوعا، وأغلبها على حياة الدواوين، وبين الأفراد. وكان كتاب الرسائل من أخص الرجال. وأقربهم الي الخلفاء والملوك، وأسبقهم إلي مناصب الوزارة، كما كان لهم ذوق أدبي جميل، ورأي في النقد محترم سديد وتوالت منهم طبقات كانوا عماد الدولة وألسنتها الناطقة، ومستشاريها المأمونين. في وقت لم تكن هناك صحف منشورة ولا منتديات عامة، ولا خطب قائمة.

وأشهر أنواع الرسائل اثنان: الرسائل الديوانية، والرسائل الاخوانية فالأولي هي ما تصدر عن الدواوين أو ترد إليها خاصه بشئون الدولة وصوالحها تيسيرا للعمل. وتثبيتا للنظام العام؛ ويغلب على هذا النوع، الدقة والسهولة في التعبير، والتقيد بالمصطلحات الحكومية والفنية، والمساواة في العبارة، والبراءة من التهويل والتخييل إذ كانت صورة لموضوعات وزارية

وأفكار خالصة . ومع ذلك فقد كانت فى العصور الاسلامية الأولي مجالا للبلاغة ، وحسن التقسيم والتعبير .

وأما الإخوانية فهي ما تدور بين الأفراد فى تعزية أو تهنئة أو توصية أو عتاب وشوق أو تحذير ووعيد إلي نحو ذلك مما يصور العواطف والصلات الخاصة بين الأفراد : لذلك كانت أدخل فى فن الأدب وأقبل للتخييل ، والصور البيانية ، والصنعة البديعة ، تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم ، وتنافس الشعر في جل أغراضه ، فالفرق بين النوعين يشبه الفرق بين الأدب العام والخاص . وكلا النوعين لا بد فيه من مراعاة الأصول [١] التي يجرى عليها الناس فيما يتراسلون :—

(١) من ذلك الاطناب والايجاز والمساواة حسب مقتضيات الأحوال فكتب المرءوسين مفصلة ، وكتب الرؤساء موجزة ، حتي انها تكون فى بعض الأحوال توقيعاً ، ومن أمثلة الأيجاز ما كتب به جعفر البرمكي إلى عامل شكي له : « قد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت وإما اعتزلت . »

(٢) ملاحظة الألقاب الخاصة بكل فرد ، وكانوا قديما يكتبون الي ركن الاسلام والجناب الكريم والحضرة الطاهرة ، أو الي الحضرة السنية . والآن صاروا يستعملون ، صاحب العزة ، أو صاحب السعادة . أو الدولة أو المقام الرفيع أو حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

(٣) تنوع العبارة بين السهولة والجزالة حسب الموضوع ، والمكتوب إليه ، وقد تكون مسجوعة ، موشاة بالبديع ، فيها أبيات من الشعر وأمثال وحكم ، ولكنها يجب أن تبرأ من التكلف والاغراب .

---

١ راجع الصناعتين للعسكرى ـ ص ١٤٦

ومن ذلك ما كتب بديع الزمان معتذرا : « يعز علي ـ أطال الله بقاء الرئيس ـ أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي ، ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي ، ويرد مشروع الأنس به كتابي . قبل ركابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جملة .

وعليّ أن أسعى وليـ ـس عليّ إدراكُ النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره ، وما بي حب الجدران ، ولكن شغفاً بالقطان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقا إلي السكان ، وحين عدت العوادي عنه ، أمليت ضمير الشوق علي لسان القلم معتذرا إلى النشيخ على الحقيقة ، لا عن تقصير وقع ، أو فتور في الخدمة عرض ، ولكني أقول :—

إن يكنْ تركي لقصدك ذنبا فكفى ألاّ أراك عِتَابا »

(٤) ملاحظة صور البدء والختام ، وكانوا قديما يفتحون رسائلهم بمثل أما بعد ، أو من فلان إلي فلان ، أو أدام الله نعمتك أو كتابي اليك ، وكانوا يختمونها بمثل قولهم ، والسلام أو السلام عليك ، أو إن شاء الله . وفي عصرنا الحديث يقولون : بعد التحية ـ تحيتي اليك ـ تحية واحتراما ، أو يدخلون الى المقصود بعد ذكر الألقاب في الافتتاح ، ثم ينهون الرسائل بمثل قولهم :— وتقبلوا تحياتي ـ وتفضلوا بقبول أصدق تحياتي ـ وسلامي اليك . ودمت للمخلص .. الي غير ذلك .

وهناك نظام الكتابة والترقيم ، كذكر عنوان الكاتب ، وتاريخ الرسالة ، والتوقيع ، ثم نظام الكتابة على ظهر الرسالة ، وعنوان المرسل اليه وغير ذلك مما يقره العرف .

هذا وقد تتخذ صورة الرسالة ، وسيلة لتأليف الروايات ، أو الكتب ،

كما يبدو ذلك فى رواية ماجدولين .

ومن الكتب العربية التى استوفت الكلام على نظام الرسائل وأدبها كتاب « صبح الأعشى للقلقشندى المصري المتوفى سنة ٨٢١ هـ ومختصره .. ضوء الصبح المثمر »

الخطابة

وهى الكلام الذى يلقي فى جمهور الناس للاقناع والتأثير ، وهى فن قديم وجد مع الانسان يلجأ اليه النابهون فى الارشاد ، والخصومات ، والحث على الحروب والسلام ، ويرقى كلما استجدت دواعيه ، واستقرت الحرية الفكرية والكلامية للشعوب . وهى أنواع ، دينية ، وسياسية ، وقضائية ، واجتماعية ، وقد تكون علمية فيهدأ أسلوبها وتسمي محاضرة . وقد كانت الخطابة عدة العرب فى الجاهلية ، ثم ترقت فى صدر الاسلام ، واستمرت أداة للدين والسياسة والحكم زمن الأمويين وصدرا من العصر العباسى ، ثم خفت صوتها لما طامن الحكم من حرية الجماهير . ولكنها استردت مكانتها فى العصر الحديث لمكان الحرية فى حياة الشعوب والأفراد ، ولنشأة النظم الدستورية فى الحكومات ، وقيام دور القضاء . والندوة (البرلمان) واباحة الاجتماع والجدل ، والمنافسة فى الانتخاب ، والمناظرة فى المسائل العلمية والاجتماعية .

ولعل الناحية الفنية أهم مايعنينا هنا ، وتشمل عناصر الخطابة ، وأسلوبها

للخطابة عناصر معنوية ثلاث : المقدمة . والعرض والختام .

فالمقدمة للاتصال بالسامعين ، واعداد نفوسهم الموضوع وبخاصة اذا كان جديدا أو كانوا متأثرين بشعور مضاد ، وقد يتركها الخطيب اذا لم

يجد لها داعيا من هذه الدواعى ، ولا بد أن تكون موجزة ، جذابة،متصلة بالموضوع ، كهذه المقدمة من خطبة على بن أبى طالب لما بلغه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عاملا له : « أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة[1] ... »

والعرض هو العنصر الأساسى في الخطابة . يذكر فيه الخطيب آراءه مقسمة منسقة مؤيدة بالبراهين ، ويرد على خصمه مفندا آراءه معتمدا دائما على حجج منطقية حاسمة أو خطابية مشهورة ، مع مراعاة اللياقة والتجافى عن السباب ذاهبا الي الاقناع والتأثير كما قال على فى هذه الخطبة : ألا وإني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، سرا وإعلانا ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم . فوالله ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات،وملكت عليكم الأوطان»

والختام أو النتيجة هام لأنه تلخيص للموضوع ، وتسجيل على السامعين ، واجتذاب لعواطفهم ، ويجب أن يكون موجزا، واضحا ، قويا داعيا الى مذهب الخطيب . جامعا لأهم عناصر الموضوع كما ختم زياد خطبته البتراء بقوله : « واذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله ، وأيم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى . »

وأما أسلوب الخطابة ـ أوعباراتها اللفظية ـ فيقوم على طبيعة هذا الفن الذى يرمى الي الاقناع ، والتأثير،لذلك كان لا بد فيه من البراهين

١ ـ المنتخب ج ٢ ص١٦ ٢ ـ نفس المرجع ص١٦٥

العقلية لتحقيق الغاية الأولى والانفعالات الوجدانية لتحقيق الغاية الثانية وهذه الخاصة وحدها تجعل أسلوب الخطابة منوعا يجمع بين تقرير الحقائق واثارة العواطف فيستخدم الفكر والوجدان وينفذ منهما الى الارادة يدفع بها الى عمل من الأعمال ، ولذلك تسمى الخطابة الفن العملى كما تسمى الفن الكامل لجمعه فى الالقاء بين شخصيتى الخطيب الحسية والمعنوية ولاستخدامه جميع مواهب السامعين . فان الخطيب يستخدم جسمه فى الخطابة فيشير بيديه ، ويحرك رأسه ، ويشكل أسارير وجهه ، وكل هذه الحركات عنصر هام فى التأثير الخطابي . حتى اذا قرئت الخطابة مكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجثماني ، مع صوت الخطيب ، وحسن إلقائه ، فيذهب شيء من روعتها وقوتها الانشائية . وعلى هذا الأساس من طبيعة الفن الخطابى نستطيع تمييز أسلوبه بما يلي :—

(١) الصفة العامة للأسلوب الخطابى هي القوة ، ومصدرها الأول انفعال الخطيب ، وقوة عقيدته ويقينه بما يقول ، ثم تظهر فى عباراته المسجوعة أو المزدوجة ، وكلماته المؤثرة الجزلة لتكون موسيقا قوية ، على تفاوت فى ذلك ، يقول زياد فى مطلع خطابته : « أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغي الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير . »

(٢) التكرار المعنوى جائز فى الخطابة لتثبيت الأفكار فى الأذهان وتمكين السامعين من الفهم . ولقوة التأثير ، ولكن لا بد من تغيير العبارات كما رأيت فى المثال السابق اذ الفكرة الواحدة وردت فى عدة جمل ، وكما رأيت عند على وكقول زياد : « أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت

مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية ؟ . »

(٣) يختلف الأسلوب فيكون خبراً، وامراً، ونهياً، واستفهاما، وتعجباً، حتي لا يكون رتيباً، وليمثل الانفعالات اللازمة للخطابة، والتي تمتلىء بها نفس الخطيب يقول زياد : « ما أنتم بالحلماء ولقد تبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتي انتهكوا حرم الأسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما واحراقا . »

(٤) والخطابة فيها التقرير لبيان الرأى ودعمه بالبرهان، وفيها القصص والوصف الموجزان يستعين بهما الخطيب فى الاقناع والتأثير كما رأيت كقول علي في خطبته السابقة : « ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها . »

(٥) يجب أن تكون العبارة ـ مع قوتها ـ سهلة مفهومة للسامعين، خالية من الاغراب أو التعقيد حتى يستطيع الجمهور متابعة الخطيب ومسايرته اذ ليست هناك فرصة للسامعين سوى لحظات الاستماع، ولا يستطيعون ايقاف الخطيب ليفهموا عنه، ولا يملك هو سوى فرصة الالقاء، فان الخطابة فن شفوى، على أنه اذا كتب نقص بهاؤه، وربما مضت ظروفه المناسبة فضاعت فائدته .

(٦) يستطيع الكاتب أن يبين بالترقيم وسواه، كل قسم وموقف، ولكن الخطيب يستبدل بذلك النبر الصوتى على النقط الهامة، والعناية بالانتقال من نقطة الى أخري بالتنبيه، وتغيير الأسلوب ولهجة الخطاب، وتوكيد مواضع القصر . . كل ذلك فى جمل قصيرة، سهلة، خالية من

الاعتراضات وتفرق العناصر اللفظية التى إذا جازت فى الكتابة فلن تجوز فى الخطابة .

(٧) السامعون هم المقياس السديد لمستوى اللغة ودرجتها ، فقد يكونون من الخاصة وبذلك يكون الاسلوب سامياً عالياً ، وإذا كانوا من العامة كان الأسلوب بسيطاً سهلا ، وإذا كان جمهوراً عاما غلّب الخطيب ناحية السهولة ليضمن الفهم للجميع .

(٨) ولا بد أن يكون الخطيب جهير الصوت ، صافيه ، حسن الإلقاء ، مناسب الهيئة ، حسن الوقوف متزن الحركات ، خبيراً بنفسية السامعين ، قادراً على الاندماج فيهم ، وعلي فهم ما يطرأ عليهم أثناء الخطابة من فتور فيعالجه ، أو غضب فيتلافاه . ويحسن انتهاز الفرص ، واختيار الأوقات والانتفاع بكل ما يفيده ، جاداً مرة ومازحاً أخرى حتى يظفر بما يريد . ويمكن بيان ذلك فى خطب العصر الحديث لمصطفى كامل ، وسعد زغلول ، ومصطفي النحاس ، ومكرم عبيد ، وتوفيق دياب وغيرهم كثير